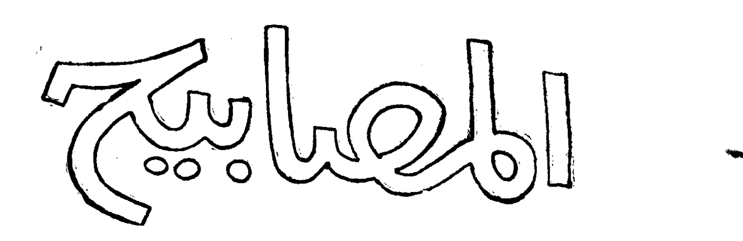


المصابيح

تأليف

عبد المنعم الصاوى

الناشر دار الحياة

٥٨ شارع ٢٦ يوليو تليفون ٧٧٢٨٢١ القاهرة

رئيس مجلس الإدارة محمد عبد الشاطى

إهداء

... مصابيح هذه القصة ، من نوع خاص :

فهى فى الظلمة ، ضمير السارى فى صحراء . لا يرى ... إلا كتلا موصولة من الظلمات ، ولا يسمع ... إلا صوت الرمال ، وهى تنساب ، فى طيات تتوالى ، طية بعد طية ، لتصبح هذه الرمال المطلوبة ، رداء عروس ، فى ليلة زفاف !

.. مصابيح هذه القصة ، من نوع خاص :

فهى فى النور ، إرادة المظلوم تواجه محاولات استثمار الظلم ، فى سوق نخاسة !

... مصابيح هذه القصة ، من نوع خاص :

... تحطم الظلمات ، وتبدد الظلمة ، وتخترق الظلام ، ليصبح كل شيء ... فى النور .

وليصبح النور ، جديرا بهذا الإهداء .

عبد المنعم الصاوى

تقـــديم

عالمنا هذا .. وجود متكامل ..

وجود قادر على أن يعوض بعضه ، بعضا آخر .

الإنسان ، والطيور ، والأشجار ، والأسماك ، بل والجراثيم .. كل يعمل كخلية نحل ، يمتص رحيق الزهر ، ليحولها إلى شهد ، فيه شفاء الناس ..

.. ولا يبخل النحل بالشهد ، ليشفى أى سقيم ، كما لا يبخل بلدعاته لأطراف تعانى من ضعف ، أو من خوف الضعف ، فى عالم لامكان فيه إلا اقوى قادر .

لكن للنحل أبرا تلدغ من يقترب منها ، وفى عينيه نوايا عدوان .. يتخفى وراء إبتسامة صفراء .

ولو تأملنا الحياة ، فسنجدها خلية نحل كبيرة .. تعطى ، لكنها قادرة فى الوقت نفسه على العقاب دفاعا عن النفس .

هكذا شاءت أرادة الله ، أن تتكامل الحياة .. لتبقى .

وهكذا يحل بعض منها ، محل الآخر ، إذا ذبل أو جف

من هنا ، يمكن أن نرى فى مكان الزهور ، أطفالا أبرياء ، تلمع عيونهم بالأمل .

وقد نرى فى مكان النخيل ، شجر الدوم ، يتطاول فى شموخ .

.. وفى مجتمع خال من الثعابين ، نجد بعض الناس ، أشد فتكا بحياة الناس ، من سم الثعبان .

لكنا نجد فى مجتمع آخر بعض النـاس ، ينيرون حياة النـاس ... كأنهم مصابيح .

.. مصابيح .. مصابيح !!

عبد المنعم الصاوى

(١)

كان البرد قارسا فى تلك الليلة .

وكان صوت الريح يزمجر ، كأنما هو أسد ، فر لتوه ، من الغابة !

وكانت كل الخيام فى مدينتنا تستقبل البرد ، وزمجرة الريح بالصمت ، خشية أن يستدل الصقيع والعواصف ، على الخيمة مصدر الصوت ، فيكون عقـاب !

ومن ذا يتحمل عقابا على هذه الدرجة من القسوة والعذاب؟ !

* * *

ذات يوم ، غطت ثلوج الجبل خياما عديدة فى مدينتنا ، وبتراكم الثلوج على هذه الخيام ، تكون غطاء ثلجى حاجز ، وتوفر الدفء تحت الغطاء ، لكن ما كان أقسى ، أن يحاول المتمددون فى الدفء ، أن يخرجوا أذرعتهم فوق الغطاء ، كما يفعل كل النيـام ، عندما يصبح الدفء أكثر ممـا ينبغى ، فيتجاوز قدرة الإنسان على تحمل الدفء ، وحرارة الفراش الوثير !! الذى يتقلب فيه النائم . . .

- الفراش الوثير !!
- نعم .. الفراش الوثير !!
- . . . وصار الجليد يا رباه فراشا وثيرا !! يتقلب عليه النيام !!
- سبحانك ! عشنا وسمعنا عن فراش من الجليد وثير .. !
- أوثير أيضا ، فراش صقيع ؟!
- فضاء صقيع ! يعطى للدفء معناه .

• كيف .. ؟

• كالجمال لا يظهر أو يبين ، إلا فى مواجهة القبح .

• والناس حيارى بين دفء يغرق الناس في بحر عرق .

• وصقيع فضاء يثير الرعشة فى الأبدان !

• والأختيار لمن ؟

• اختيار بين ماذا .. وماذا ؟ .. ولماذا ؟

• صقيع فضاء بحثا عن طعام ، لبطون جوعى ... !

• أو دفء ملفوف فى عرق الأبدان .. ولا طعام .. !

• ولماذا الطعام ؟

• ولماذا السؤال عن الطعام ؟

• ألا يريدون الطعام ؟ ليدب الدفء فى الأجساد .. ؟

• فأن توفر الدفء ، بلا طعام .. أنتفت ضرورة توفيره .

• وهل مهمة الطعام الوحيدة أن يوفر دفء للأبدان ؟

• ما أصغره هذا الإنسان ! أهو بدن ؟ ولا غير .. !

* * *

وأرتفع صوت غلام ، تمدد فى حضن أمه الأرملة ، وهى بعد شابة ، فى أنضر سنوات العمر .

• إنى جائع يا أماه ..

• أصبر يا فلذة كبدى ..

• أقول أنى جائع ..

• أصبر قلت لك .

. أمرك . أصبر يا أمى ؛ لكن إلى متى ؟

. حتى يطلع الصباح .

. أفهذا . . ؟ يا أماه . . هلا يمكن أن آكل ، إلا أن يطلع الصباح ؟

. وتنير الدنيا يا ولدى . طوال نهار . . !

. لماذا يا أمى ؟

. للنهار عيون يا ولدى .

. عيون . . . لترى !!

. . . ولا ترى فى هذا الظلام .

. لكنى جائع ، أريد أن آكل .

. أتأكل ما لا ترى ؟ !

. الولد مهند يسرق الحلوى من أمه . . ويأكلها فى الليل المظلم .

. ومتى يكون مهند هذا ، قد سرق الحلوى . . ؟ ! أفى الليل ؟

. . . لا ! فى النهار طبعا

. إذن رآها ، قبل أن يسرقها . . .

. ربما ! لكن لماذا ربما ؟ لابد أنه رآها فسرقها .

. صديقك هذا رأى الحلوى ، فى النور .

. لكنه أكلها فى الظلام !

. وشعر بحلاوتها ؟

. يقول مهند أن حلاوتها فى الظلام أضعاف حلاوتها فى النور !

. غريبة . . ! ولماذا ؟

. . . . لأنها . . تسامحينى يا أماه ؟

. تكلم فى همس ، حتى لا تزعج أختك . .

- أكملي الطابور . . أختي وأولاد عمي . . والجيران .
- مشاغب . . . كثير الكلام . . عد إلى حكاية مهند . والحلوى .
- إن حلاوة حلواه . . .
- . . المسروقة . .
- . . ولأنها مسروقة . . ! تصير حلوة جدا كما يقول .
- أو تزداد حلاوتها أو تتضاعف . . لأنها مسروقة ؟
- الممنوع مرغوب . . . الولد مهند قال لي هذا .
- وصدقته ؟ !
- طالما ليس لدي ، دليل على كذبه !
- أفكل ما لا يقوم الدليل على كذبه . . صدق ؟
- . . أنا أروي عن مهند يا أمي .
- وتروي كذلك عن نفسك . .
- . . أبدا . . أبدا يا أمي .
- لا ترفع صوتك ستزعج أختك . .
- وأولاد عمي . . والجيران . . !

° ° °

وشعرت مريم الأرملة الشابة ، بالرغبة في أن تتقلب ، لتريح أطرافها .
وفي لحظة تصورت أنها تلتحف ببطاطين من وبر جمل ناعمة دافئة ووثيرة!
وفي لحظة مدت ذراعها ، لتتخفف قليلا من أغطيتها .
وفي نفس اللحظة صاحت مريم ، كأنما قد لدغتها أفعى !
- آ . . ي ! هذه لدغة أفعى . . أو شكة دبوس حاد طرفه .
ووجم معين الصغير ، وهو يتأهب لحماية أمه ، مما صاحت تشكو منه ،

فمد ذراعيه حواليها ، ليدفع عنها أى أذى .

وما هى إلا لحظة ، أو بعض اللحظة ، حتى صاح هو الآخر …

. آ .. ى ! هى جمرة نار يا أماه ! والجمرة لعنة !

واعتدلت مريم ، تحت غطاء الثلج ، وسحبت ذراعى معين الثرثار ، لتدثرها بجليد شتاء قارس .

قال معين :

. الله .. يا أماه .. الدفء ما أحلاه .

* * *

… وكان غطاء الجليد ، قد تماوج بحركة مريم ومعين ، .. وكانت التعليمات تقضى بالصمت ، وجمود الحركة ، وكأنما هم ـ الأحياء ـ قد دفنوا !

وسمع المدفونون تحت الثلج صوت بعض الطلقات محمومة !

أنطلقت ترتعش ، من فوهة قبر ، فأسرعت طائشة حمقى ..

. اتخاف الطلقات ؟ !

. الطلقات لا تسرع محمومة ، إلا من خوف .. !

. وكيف الخوف .. يخاف ؟ !

. من خوف ، أخوف منه ! أو من نفسه !

. وهل الخوف يزيد وينقص ؟

. عندما يزول فيتلاشى !

. وكيف .. ؟

. أغنى الأغنياء غنى .. هو من يستغنى !

. حتى لو كان الاستغناء .. عن عجز أو افلاس ؟

• يكفى أن يصبح صاحبه أكبر من أن يطلب !

• أفيكبر إذا لم يطلب ؟!

• مكانته تصبح أكبر .

• من .. ماذا ؟ وكيف ؟

• ممن يملك .. ولا يشبع بما يملك !

* * *

ولم تشعر مريم أو معين بشىء ذى بال .

وبعد قليل ، تحسست مريم رجليها ، فأذا خيط نافر ، كأنما هو عرق ولدت به .. ينفر مرة ، ويتساوى مع سطح الرجلين مرة .. وهو في كل الأحوال جزء منها .

وكان معين يتقلب فى حضن أمه ، كما كان يفعل لتسعة أشهر وهو بعد جنين ، دنياه وملعبه ، بطن الأم الحامل .

وأمتدت أذرعة الأم لتمسك بمعين ، ولتمنعه من حركة يتحرك معها غطاء الثلج ، وهو وثير !

وعجب معين من نفسه ، ومن أمه .

• ماذا تريدين يا أماه؟

• أن تسلم لى يا فلذة كبدى .

• أتخافين على .. ؟

• طبعا .. ألست برجل ؟ وهل لى يا معين رجل سواك ؟

• وأنا أفديك بدمى يا أمى .

• .. رجل .. أنت رجل يا معين .

• لكنى رجل .. جوعان .. أطلب أن آكل !

• مثلما يأكل الولد مهند ؟

• ماذا تقصدين يا أماه ؟

• أفتسرق .. لتأكل ؟

• مهند لايسرق يا أماه ؟

• كيف يا معين ؟

• هو قال لى أن الواحد لايسرق ما يملك ؟

• فلماذا يخفيه . .

• الواحد قد يخفى أنفس ما يملك ! هذا كلام مهند .

• ويأكل ما يسرقه فى الظلمة ؟

• . . يعنى !

• لو أن حصوله على الحلوى ، وبهذا الاسلوب ، حق . . ما أخفاه .

• هو يخفيه ، حتى يأمن غضب الأخوة .

• الولد مهند يعلم إذن ، انه يغتصب الحلوى !

• ممن يا أماه ؟

• من أصحاب الحلوى .

• هو منهم . . ! هو واحد من أصحاب الحلوى .

• لكنه يتجاوز نصيبه منها .

• كما يتجاوز أخوته ، أنصبتهم فى حاجات أخرى .

• من قال لك هذا ؟

• الولد مهند .

• ليبرر لك ما يفعل .

• • •

وأخذ معين يفكر فيما قالت أمه . وانشغل عن الجوع بحكاية الولد مهند ، وكيف يخفى الحلوى ، ليأكلها فى الظلام ، وتحت غطاء الثلج ، وهو آمن ، فأن يدا ، لاتستطيع أن تمتد إليه لتخطف حلواه .

وأقتنع معين بأن ما قالته أمه .. صحيح ..

لئيم هذا الولد مهند ! والأم منه راشيل !

.. ومن راشيل ؟

. بنت خالتى أم راشيل .

. وأبوها من ؟

. لابد أنه أبو راشيل .

. وهل رأيت اباها ؟

. لا أبدا .. يقولون مسافر ..

. حيث لاتعلم ، ولا يعلم أحد ؟

. نعم حيث لا أعلم ، وحيث لا أعلم أن أحدا يعلم .

. ولا راشيل ؟

. لم اسألها .

. وأمها .. ألا تعرف عن زوجها شيئا ؟

. لابد أنها تعرف .. لكن أين هى لأسألها ؟

. أولم تر أم راشيل ؟

. ولماذا أراها . ألا تكفى راشيل . فتاة تلعب معنا طول النهار .

. وطول الليل .. أين تكون ؟

. تقول فى المخيم البعيد ، فى أطراف مدينتنا .

. تلتحف غطاء من ثلج .

- وتفترش أرضا من صخر جبل .

- ويلدغها الصقيع البارد ؟

- إذا أخرجت يدها من بين لفائف غطائها الدافىء الوثير .

- .. الدافىء الوثير ! كأنه سطح الفرن فى قرية ! أو مدفأة فحمها جمر ليصبح جو الغرفة دفء وحرارة ، فى ضاحية أوربية !

. . .

وشعر معين بأنه جائع ، فصاح يقول لأمه : جوعان ! أنا جوعان يا أمى وربتت مريم على خده ومسحت شعره وهى تطلب منه أن يصبر ، حتى يطلع النهار ، ويعم النور .

وانشغل معين يفكر : فيم النور ، لجائع يطلب أن يأكل . هل يأكل من يأكل .. بالنور . وهل النور سكين يقطع به ما يحتاج إلى أن يقطع . أنه يستطيع أن يستغنى عن النور بأسنانه ، وهى تكسر « الزلط » لو أراد . النور ! النور ! أنه يحتاج إلى النور ، ليكتب الواجب ، فلا يوبخه المعلم أمام التلاميذ . لكنه يريد أن يأكل .

وقال معين لنفسه :

- أفلا يأكل الشيخ مرزوق ، وهو .. ! استغفر الله العظيم ! لم يكن قصدى أن أتعرض لعاهات الناس . أمى تحذرنى دائمـا من ذلك وتقول أن لكل منا عيبا . وحكمة الله أن يوزعها بالقسط بين من يستحق من عباده ، ولحكمة يراها سبحانه . كل هذا أعرفه يا أماه .. وأعرف أيضا أن عم الشيخ مرزوق يأكل ، دون أن ينتظر طلوع الصباح وظهور النور .

وفى نفس الوقت كانت مريم تحدث نفسها والليل ساج ، يتسع لذكرى بعد الذكرى .. والليل طويل ، حين تفرضه السلطة على الناس ، لينـام من

ينام ، وليحلم من يحلم !! أما من قد يطول به الأرق ، فأنه يشد قامته وهو نائم ، ثم تسترخى أطرافه ، ثم تعاوده الذكريات ... أو أحلام اليقظه ، وكلها أوهام ! .

لكن مريم تقف عند حقيقة . . .

أبنها معين يعضه الجوع ، فيتلوى ثم يطلب منها أن يأكل . ومريم تعرف « معين » ، كما تعرف كل أم بنيها ، ومريم تعرف عن معين أن فيه من الكبرياء ما يمنعه من أن يتدلى ليحقق غرضا . وفيه من الاعتزاز ما يدفعه إلى أن يبدو رافضا ما يتمناه .

وتمضى مريم تذكر كلماته . لقد طلبت منه يا مريم أن يصبر . . ! يصبر على الجوع فى غسق الليل ، والثلج يغطى الدنيا ، كملاءة مريض فى مستشفى ! أو « . . . ولماذا يا مريم يسرح بك الخيال إلى أقصاه . . » أو « . . . ماذا يا مريم » ؟ كانت كلمة كفن الميت عـلى طرف لسانك ! فلماذا الحزن أو اليأس ، أو الأنطواء على الهم .

• ولماذا ما هو . . . غير هذا ؟

• لتعيشى تربين صبيا وصبية ؟

• أما طاهرة فلم تك عندما رحل أبوها ، إلا قطعة لحم تتحرك ! لم تعرف أن « معين » ما أن بدأ يعى ، حتى سلبوه أباه ، ليصبح واليتم على موعد ، أو تبكى ! أو تتأثر !. الجريمة أنهم خطفوا منه الأب ، وهو يلعب بقطار يتحرك أو بكرة متوسطة الحجم ، أو بالونة منفوخة بغرور أحمق .

• ووجدت نفسك يا مريم أمام قطعتين من اللحم ، واحدة خارج بطنك ، وواحدة داخل بطنك ، لا تعرفين ماذا ستكون .

ولد . . ربما ! ليثأر لأبيه وأخوه معه . . أو بنت . ربمـا ! لتصبح كبنات الساحة ، كالأولاد يعدون لثـــأر . بالنار ! بالدم ! بكل وسيلة !

وحاولت مريم أن تغمض جفنيها . لكن صوت معين أزعجها .

· إنى جائع يا أمى . قلت لك جائع جائع ! فكيف تطلبين منى أن أصبر أفيصبر منحوس داهمه المرض ليرديه . أفيصبر وهو مريض يطرق باب القبر ! ثم أن الولد له حق ، فهو يريد طعاما . فكيف لا يأكل إلا فى النور ، عندما يطلع صباح يوم آخر .

أفيضل طعام ، بطن الجائع ، والظلام يلف الدنيا ويسود ! . وهل فى بطن الجائع ، نور ! . وهل تتقطع أنفاس النور فيدارى خجله بالظلمة ؟ .

فجأة وقف كل تفكير فى رأس مريم . أو رأس معين ، حين الطلقات الحمقى عادت تهز سكون الليل ، بينما هى ترتعش من الخوف ، ولأن الذين يطلقونها لا يعرفون لا معناها أو مغزاها أو مرماها !

وتكوم معين فى حضن الوالدة الحيرى ! وألتصقت طاهرة بمعين ، ليعين ! وكتم الناس أنفاسهم فى هذا الجو الخانق .

لكن « معين » الثرثار ، أخذ يقول :

· ما هذه الطلقات يا أماه ؟ أعرف أنى أسألك نفس السؤال للمرة الألف ! وأعرف أنك ستجيبين نفس الأجابة الألف ! .. أيخافون من ينام ، تحت الثلج ؟

وفيم الخوف ، وهم مدفونون .. كالموتى .

قالت مريم أمه ، وبصوت مسموع . كانت مريم قد تعبت من الهمس ، فأرادت أن تستريح ببعض صياح ! أو بصياح أخرس ! قالت فى صوت مسموع لم يعد قادرا على أن يتخفى !

· أفتستكثر يا معين أن يخافوا .. من المدفونين تحت الثلج كالموتى .. ماذا لو أخبرتك أنهم يخافون الموتى ، أكثر مما يخافون أشباه الموتى .

. غريب هذا يا أماه !

ونطقت طاهرة .. الصغيرة طاهرة . قالت وقالت بكل الصمت والهمس والحذر :

. أشباه الموتى يزحفون من الضعف فوق بطون ضمرت من الجوع …

أما الموتى …

. .. فهم أضعف … لا بد من أن يكونوا أضعف …

هذا تقديرك ، لكن الموتى أقوى …

. من الأحياء المرضى ، ومن غير المرضى .. أيضا .

… كيف … يدهشني يا طاهرة …

. وتدخلت مريم .. لتشرح لمعين ما تقوله طاهرة . قالت :

. هل من ميت ، لا يترك ذكرى …

وقال معين … : … والذكرى ما قيمتها … المحارب بالذكرى …

قالت مريم :

. سلاح المظلوم يا أبني ، الذكرى ! سلاح الأحرار … الذكرى !

صدقني …

وأضافت طاهرة ما سمعته طويلا من أمها مريم :

. الذكرى سلاح أقوى من طلقات [illegible] والقنابل …

وكما قالت لي يا أماه .. هي غذاء الشاعر والفنان والعالم …

وصاح معين وقد عاد فتذكر …

• إني محتاج لغـــذاء . جوعان . هبو أني شاعر .. أعطوني طعاماً يشبعني ، أعطكم قصيدة شعر !

وعاد الصمت يسود ، عندما نشطت طلقات الليل ، فلما تباعدت الطلقات ولم تعد متصلة ، وكأنما هي تنتقي الأهداف الواضحة قبل الضغط على الزناد الغادر لتدوي الطلقات .. عندئذ افسح تباعد الطلقات مجالا للكلمات ، تخرج من أم أو من صبية يحملها اليتيم ، وصبي ثرثار .

• القاتل بالقطع أضعف من مقتوله !

• .. وإلا ما قتله .

• ومدينتنا ماذا فعلت ، لتعاقب .

• ورجالنا ماذا فعلوا ليموتوا غدرا .

وشباب .. كالورد رائحته .. عطـرة .. ذهب قبل أن تتفتح وريقاته .

وصاحت مريم ، وهي تمسك بيديها ، البنية والصبي :

• اسكتوا .. لا كلمة ، لا نفس .. أني أسمعهم قادمين ، وهم يقتربون .

قال الثرثار معين :

• لكن كيف عرفت أنهم هم .

قالت في حذر بالغ :

• ومن .. من سواهم .

قالت طافرة ، وهي تضغط على كف أمها :

• كأن حذاءه ، تمر فوق خدودي !

وقال معين في ثرثرته المعتادة :

• أنهم هم الذين يحركون علينا الغطاء الثلجي الأبيض ! هم الذين يعتدون

علينا ! « عليهم واحد » .. عدى يا طاهرة .

وبدأت تسمع مدينتنا طلقات ، فوق المعسكرات ، التي يتغطى سكانها بالثلج الأبيض .

ولم تكن هذه الطلقات غريبة على مدينتنا على أية حال ، فهذه حياتها كل شتاء ، وخريف .. وطول العام ، فى أغلب الأحيان .

يتمدد الرجال والنساء والأطفال بملابسهم فى أماكن ، وزعوها هم على أنفسهم ، ويبدأ سقوط الثلج فوق الأجساد ، وقد تكورت تحمى نفسها بنفسها ، وما هى إلا ساعة وبعض الساعة ، حتى تختفى الأجسام تحت غطاء أبيض !

وقد يتحرك الغطاء ، حركة تخيف الحراس ، فيكون عقاب الطلقات !

وقد يتحرك الغطاء ، حركة مسالمة ، لا تخاف ولا تخيف .. فيكتفى الحراس بالملاحظة ثم يستأنفون مسيرتهم ، والسلاح فى أيديهم ، والغلايين تتدلى من أفواههم لتمتزج رائحة الدخان برائحة الخمر !

لكن مريم شعرت بطعنة تخترق كل حذر وتحوط ، عندما سمعت ابنتها تقول أنها « تشعر بحذائه فوق خدودى » ! وبدأ حديث ثلاثتهم فى عصبية :

. حذاؤه ! حذاؤه !

. حذاؤه المسروق !

. وعلى أرض مسروقة !

. يا ويلى ... أيدوس بها خدودا وردية تتأرج فى عطر لا يشمه السكران أو الغادر !

. خدودك يا طاهرة .. تداس . وأنت صاحبة المكان والزمان والأرض فى مدينتنا ؟

- أو ليس هذا ، أنتهاكا للحرمات .
- وللأعراض يا أماه . . لكنى أدبته .
- ولدى . . أفغامرت مغامرة أكبر منك ؟
- أدبته ، ولابد أنه الآن مشلول الحركة .
- قل لى يا ولدى . أنا منك ، بل أنى أدفع عنك . . حياتى . فقل لى . .

وسمعت مريم وأبنتها وفتاها ، اصطدام جسم بطبقات الثلج ، أعقبه صياح يطلب نجدة .

وفى جو ريحه عاصفة ، وثلجه موصول يتساقط ، ليحجب الرؤية ، وتصبيح الأصوات ، فلا تسمع ! ليبقى من صاح بين الثلج ، يجف ويضمر ، حتى يتجمد .

وأمسكت مريم بمعين لتقف على ما فعله . . ولم يرد . معين لم يرد . . وودت مريم لو تلطم خديها ، خوفا على ولد ثرثار ، لم يبق لها ذكر غيره .

قال معين ليهدىء أمه :

- أنا لم أفعل شيئا . . تسللت إليه بأصابعى ، لأفك رباط حذائه ، ليصبح للفردتين رباط واحد ، وبهذا يتقيد ، وتشل الحركة فيه هذا الأفاق يا أماه .

وسكتت مريم ، وسكتت طاهرة ، وسكت معين .

وفجأة ضحكت طاهرة ، من منظر بضاعة . . . تهوى .

- أتقولين بضاعة . .
- نعم أقول بضاعة . .
- الرجل بضاعة ؟
- والمرأة بضاعة . . حتى حكام مدينتنا المأجورون بضاعة .

. تعنين أن عهد الرق قد عاد .

. [illegible]

. تماما .. عاد عهد الرق ، وعبيد الأرض ، وعبيد يذوقون الحنظل ، ليسترضوا السادة .

. [illegible]

. هؤلاء جنود . [illegible]

. [illegible] يلبسونهم جنودا [illegible]

. هذا شيء فوق التصديق [illegible]

. إذا كانوا يلبسون الحكام .. ملابس فيهـا هيبة .. فكيف يجلبون مرتزقة ، أكثير أن يلبسوهم جنودا يخيفون بهم من يتمرد [illegible] هذا العالم [illegible]

. عالم مجنون ، وسكان هـذا العصر ، أما مخدوعون ، أو عملاء باعوا أنفسهم [illegible]

. [illegible]

. لمن يبشرهم بأحلام الأطفال، وهم يلعبون في أفنية المدارس لعبة [illegible] والعريس مثلا .. أو لعبة السلطنة ، وهي اللعبة التي يؤثرها الأطفال .

. [illegible] هذا الكلام خطير [illegible]

. وهل ينفي صدقه ، أنه خطير .

. أبدا .. [illegible]

. إذن نتفق على أن الإنسان [illegible] بقدر ما ينجح في تحويل الناس إلى حيوانات شرسة ، أو آلات وأجهزة ، تعمل وفقا لما يلقنونه لها من برامج . والكلاب مثلا لا ترى في الظلام ، لكنها تتمتع بحاسة شم ممتازة . يشم الكلب رائحة غريبة ، وهو على بعد منها ، فيجري نحوها ليفتك بهـا . والإنسان إذا درب كالكلب ، أصبحت له خـواص الكلب ، يفتك بأي [illegible]

غريب ، أو بأى مخلوق يحركه صاحبه نحوه . . ينهش لحوم الأحياء ، وهم أحياء . يقتل وكأنما هو يتناول كوب الشاى . [illegible] إذا [illegible] لم يدخن على الريق . أو على لحم بطنه كما يقولون .

[illegible] لكن هذا [illegible] وقع على [illegible] ، جندى . [illegible] ميدفع رشاش [illegible]

. ومع هذا فأن الصبى [illegible] لا . [illegible]

. هذا شىء [illegible] هذا شىء [illegible]

[illegible] لا [illegible] أن هذا شىء [illegible] لقد [illegible] يحرس أرضا لا يعرفها ، ويراقب قوما [illegible] بينه وبينهم [illegible] ليصبح آلة . مثلا المنبه الذى يوقظ النيام ، أيفكر قبل أن يرن رنينا متصلا يزعج الجيران . . ولا يسكت رنينه إلا أن يصحو من ضبطه ، ليكتم أنفاسه .

. أفهذا عالم [illegible] الانسان .

. وأحالوه إلى وباء متوطن . .

[illegible] وتوطن الداء هنا وهناك : [illegible]

. أهو داء قابل للاستعمال فى أى مكان آخر :

. لا . . . إذا كان الوباء الذى يعملون على توطينه [illegible]

فلذلك طرقه . وإذا كان الوباء هو العدوان على من يرفع رأسه . فلذلك طرق أخرى . .

. . [illegible] الدنيا [illegible]

. [illegible] أن [illegible] الانسان أن [illegible]

[illegible] استعباد الإنسان [illegible] الرق ، بأسلوب أو آخر ، يسلب من هذا العصر ، ما كسبه .

· ولو خيرنا ...

· بين ماذا .. وماذا .. ؟

· بين الصعود إلى القمر ونجـوم متفرقة مختلفة .. وبين مزايا النفس البشرية.. مع صعوبة الحياة ، وقسوة ما يمكن أن نعانيه منها .. فماذا نختار؟

· الإنسان بمزاياه ، أيا كانت معاناته ..

· والحرية وكرامة إنسان العصر ، وحقه فى ان يختار طريقه .

· إنا ندفع أرواحنا ثمنا لكل هذه الحريات ، وليذهب العبيد الجـدد إلى جنة ، صنعوها بالأفيون ونقيع السم الهارى .

· · ·

كيف استطاع الثرثار أن يلقى بالبضاعة على غطاء الثلج ، وهو سميك ؟ معين يقول فى ثرثرته ، وهو منفعل :

· أيدوس بحذائه على وجنات أختى .. واسكت .. إنى أشعر بأنى مسئول عنها ، ألم نبدأ حياتنا فى نفس للملعب وهو أحب إلينا حتى من أنفسنا ، جمع بيننا هذا الملعب ، وأن أختلف وقت اللعب بينها وبينى . لـكننا نعرف تضاريسه وطبيعة أجزائه ، وعيوبه ومزاياه .

عن يسار اللاعب بضعة تجاعيد ، تحتاج من اللاعب أن يحتاط . وعن يمين فجوة على خط الملعب ، يجب على اللاعب أن يتفاداها . وعنـــد طرف من اطراف الملعب يقف بعض من حملة المشروبات والماء ، ليبل اللاعب شفتيه . . وهذا مشروط بأن يكون اللاعب والبائع يرتديان لونا واحدا ، يجمع بينهما .

ومع كل هذه الأعتبارات ، فالملعب حنون ، جميل ، كبير القلب ، متسامح ، حتى مع من يغلب أو يهزم أو يفقد أعصابه . وبغير الملعب ، لا لعب ، وبغير اللعب ، لا من يلعب .

وطاهرة تسأله كيف اخترق غطاء الثلج إليه .

ومعين يجيب بأنه نبش الثلج بأظافره ، وأستعان بأذنيه ليحدد المكان الذى يدب عليه « الدب الأبيض » . فلما أهتدى بحواسه إلى مكان القدمين ، اللذين داس بهما الكلب الجبان ، على وجنات طاهرة الحلوة . . حينئذ . . .

وسكت معين بينما طاهرة تستحثه ليكمل .

ومعين يقول فى عصبية من يستكثر ، ألا يدرك من يسمعه ما يرويه .

قال معين :

• أخرجت ذراعى ، وفككت رباط فردتى حذاء الوحش ، ثم ربطتهما كل فى الآخرى ، رباطا غير قابل للفك . . إلا أن يقطع بموس أو بسكين حـادة .

• ووقعت البضاعة . .

• وستظل واقعة على وجهها الغبى . . الأملس .

وأخذت طاهرة تضحك من أعمق أعماقها ، وهى تختزن لأخيها كل الحب وكل التقدير ، وكل الأعتبار .

طاهرة رأت آخاها الثرثار عملاقا بين الرجال . حطم غطاءه ، ليـؤدى واجب الراعى لرعيته المحتاجة له . . ولولا أنهم جميعا . . هى وهو وصاحبة الملعب . لولا أنهم تحت الثلج ، لقبلته الأخت من وجناته .

صاحبة الملعب وحدها سألته :

• وكيف كانت اللذعة ،عندما أخرجت ذراعيك من الدفء إلى الزمهرير القارس ؟

قال معين ، يروى لأمه :

• لم أشعر بشىء .

قالت مريم :

ـ [illegible] تشعري بشيء [illegible] الخروج من الدفء والدخول إلى القطب [illegible] أفلا تذكرين [illegible] أنا أذكر عنك وألك ضحكاتك [illegible] بل أنا نفسي كنت أكثر منك ألما منك [illegible] أفهذا عيب [illegible] وعن أمك وأختك .

ورد معين بأن أقسم برأس أمه ، سيد شهداء الأسرة ، بأنه لم يشعر بشيء .

كنت مشغولا عن أى شيء ، وعن كل شيء ، بشيء أكبر [illegible] يا أماه وأختي ، هو كل ما أملك [illegible] فهل أترك ما أملك ، ليداس بأقدام بخسه . لا يملك بل تملك [illegible] أين في مدينتنا [illegible] من يرضى [illegible] أن مدينتنا هي أكبر ملعب يجمع كل الناس ، ليصبح منهم نجم يلمع ، وليصبح منهم حكم ، يراعى الله ، فلا يحكم بغير الحق .

والجمهور الواسع من أهل مدينتنا [illegible] ليحقق النصر لفريقه ولمدينته وقد أفسحت له من قلبها أن يأخذ فرصته الذهبية ، فيبدع ويتفوق وتهتف باسمه كل الألسنة ، وتخفق بحبه ، حتى قلوب صبايا مغلقة فى ثوب من البراءة والاستحياء .

وسكت معين ، وهو يشعر بشيء يتحرك فوق غطاء الثلج ، فعاد يستعمل أصابع يديه فى اختراق غطاء الثلج ، فلما فعل أخرج يديه ، يتحسس ماذا يحدث . لكنه وجد « البضاعة » تحاول أن تتقلب على جنب من جنبيها .

تعبت . البضاعة المسكينة تعبت يا أماه ! ويرفضون أن يعترفوا لأهل مدينتنا بالحق [illegible] أن يتقلب النائم إلى الجنب الثانى ، لكن كيف يتقلبون دون أن يتحرك الغطاء الثلجى وتحرك الغطاء يخدش حياتهم . أليس كذلك يا أماه . وهم يعتبرون [illegible] تمردا أو ثورة ... وعقاب الثوار ، أن يطلق الرصاص عليهم [illegible] منهم

من قضى ، فذلك أفضل للقاتل والمقتول . أما من لا يقضى [illegible] يرتعد من الخوف .

الخوف .. الخوف .. الخوف .

ويأتينا من الخوف التخويف .

لماذا الخوف والتخويف يا أماه .

ايخاف الناس من الموت .

وهل الموت أكثر قسوة على من مات .. من الاذلال بالخوف وبالتخويف .

الولد مهند ينقل لى عن أهله ، أنهم يتحدون المرتزقة ، وينالون — برغم هذا — كل مايردون . وراشيل تعرف أن أهل مهند يفعلون ما يريدون ، ولا تعقلهن .

تحكى راشيل عن ظلم شديد أصاب أباها ، فرحل حتى لا يتعرض للتعذيب .

تصورى يا أمى ما يحدث . أننا هنا ، فى هذا الركن من المخيم محظوظون فليس فينا من يتعرض للاعتداء فيرحل ، وليس فينا من يتحدى المرتزقة .. فكفاهم أنهم مرتزقة ..

والتفت معين يسأل أمه :

. أتظنين أن البضاعة أكتست بالثلج فغطاها . أفقد صارت بضاعتهم مثلنا ، تخاف من ان تتقلب تحت غطاء الثلج . حتى تنجو من الشك . وتوابا الغدر ، والتربص لمن يعصى .

• ولولا أنها فاسدة ، ما سلكت هذا المسلك .

• يقول مهند أنهم مأمورون بالتنفيذ ، وإلا . .

• وراشيل ، هل لها هى الأخرى رأى . .

• راشيل دائمة التفكير فى محنة والدها . . .

• . . . الذى أضطهدوه . .

• وعذبوه حتى رحل بعيدا عنهم .

• مسكين أبو راشيل .

• ومسكينة هى أيضا .

وسكتت مريم ، وهى تتقلب بهدوء إلى الجنب الآخر . لكن الثرثار لم يتركها . .

قال معين : أتعبت يا أماه من الكلام الليلة .

قالت مريم : وأتعب من نفس هذا الكلام كل ليلة .

قال معين : إذن أنك يا أمى لا تنامين .

قالت مريم : ولمـــاذا أنام .

قال معين : لتحلمى .

قالت مريم : بمـن ؟

قال معين : بأبى . . بسيد شهداء الأسرة .

قالت مريم ، فى صوت صاخب : افى هذا الجو ، يمكن أن أحلم . انحت سقيفة ثلج ، احلم يا ابنى . افيخدعك الدفء الموهـوم . . انا يا ابنى نتدفأ بالثلج . . لا بالنار ولا بحطب نغلى الشاى عليه ، ثم نحتسيه ، رشفة رشفة والحطب يتحول إلى جذوة نار ، لا تغضن على كف تمتد إليها ، بفيض دفء . وفى أقصى درجات الحـر ، فنبرد من القيظ بلهيب الشمس ، ونربط رؤسنا

حتى لا تتصدع . أنا يا أبنى نسير مع الدنيا بالعكس . نشرب ماء مخلوط بالوحل . ونأكل ما نعطى ، بغير خيار . وننام كما ينام كلاب ضلوا .. حتى الكلب الضال ، يسمح له بأن ينبح ، أما الواحد منا ، فمحروم من أن يعطس . أو يتثاءب .. لاحق له أن يعطس . حتى لو كان مريضا بسعال ديكى . فان تثاءب ، فهو يتناوم من ضيقه . والضيق لم يرد ضمن حقوق تترتب لمن هـد البركان .. نفوسهم ... أفتفهم يا معين . أفتفهم يا ولدى

وشعرت مريم بأنها آلمت « معين » وهى تحكى ، فلما مدت كفا من كفيها لتربت على خده .. قبلها .. معين قبل كفا تمتد إليه ، لتمسح دمعه ..

أما مريم ، فقد ساورها هاجس :

ماذا لو أن دموع معين ، قد تتحول إلى قطع من ثلج ، يخفى عنه الرؤية .

ومريم أم ، والأم تجـوع ليشبع من حملتهم فى بطنهـا ، ليصير كل منهم خفقة فى قلبها .

وبحنان الأم ، بكت مريم ، حتى إذا ما تجمدت دموع معين ، تجمدت معها دموعها ، فلا يعانى الفتى ، من شىء لا تعانيه الأم ... معه !!

. . .

(٢)

كانت مريم تحاول أن تبدو هادئة ، بلا صياح أو دموع . كانت تشعر ، وأهل مدينتنا يمدون إليها أكفهم ، أن الحفل ، حفل عزاء !

لكن مريم كانت ترفض هـــذا الهاجس ، فكلهم كفقدها من فقدتهم من زوج أو أهل أو صهر أو جار .

فى لحظة كانت تترك دموعها لتسيل ، حارة حائرة ، ملتاعة ، تحفر فى خديها مجرى ، غائرا وعميقا ، ولم تكن مريم تعبأ بشىء ، فقد كانت صورة معين ، هى أهم ما يملأ عينيها ، كما كانت كلماته ، أهم ما يتردد فى أذنيها .

« جائع . . أنا جائع يا أمى . »

وتنتحب مريم وهى تتذكر انها لم تفعل شيئا للجائع ! لكن ماذا كانت تستطيع أن تفعل ، وهى تتدثر بغطاء من ثلج ؟ .

أفكان من الممكن إن تقدم له قبضة ثلج ، فهذا هو ماتملكه مريم ! .

لكنها أم أرمل ، فقدت زوجها ، وهى بعد فى عز صباها . . الأم فى مريم ، كانت ترجو ان يبقى لها ابنها معين ، ليعوضها عن زوج استشهـــد ، وكثيرون من الأهل . . ذهبوا إلى مصير غامض مجهول . .

وتجهش مريم ببكاء مسموع .

وتتقطع انفاس الأرمل ، وهى تستعيد صوت معين يحكى لها عن مغامرة قام بها ، ليؤدب الحارس ، الذى داس على أهـــل مدينتنا ، وهو فى نوبة حراسة ، وشعرت ابنتها طاهرة بقدميه ، فوق خديها ! .

وتصيح مريم من الم ، وهى تتسائل حتى معين الآن وأين ذهب الآن

أفتعرف الأرض أين قادته قدماه ؟

أفيعرف أو يعرف كيف مضى معين .. وإلى أين ذهب ؟

أفيمكن أن يكون معين ، على هذه الدرجة من القسوة ، فيمضى عن أمه وأخته ، بلا استئذان .. وبغير وداع ؟

وتشعر الأم ، بأن شيئا ما لا بد أن يكون قد جر « معين » إلى مصير مجهول .. لكن سبقوه ..

.. بل لا .. سيكون بخير .. سيعود بخير .. معين بخير .. أليس كذلك يا طاهرة ؟

وتهز طاهرة رأسها ، بينما دموعها تتساقط ، لتحول غشاوتها بينها وبين الرؤية .. ترى أمها شبحا يحوم حولها حزينا يائسا ... وترى أبناء عمومتها ، وكأنهم ظلال . حتى أذناها لم تعودا تسمعان . أن الأصوات تصلها مشوشة ، لا تستقيم .. وكأنما تمر الأصوات من جهاز للتشويش !

فجأة عاد معين .. وكان أغرب ما رآه الجمع ، أن الصبي قد عاد ، فى صحبة الشيخ مرزوق ، وغير بعيد منه ، فتاة صغيرة شقراء وجميلة ... تسير الى جوار معين ، سعيدة تضحك ..

وانقلب البكاء إلى دهشة !

وتحول الصياح إلى قبلات !

وإذا النحيب ، يصبح نوعا من موسيقى الطبيعة كشدو البلابل ، أو زقزقة العصافير ، أو دعاء الكروان .

وبعد العناق والقبلات والتنهدات ..

لكن الشيخ مرزوق آثر أن يتكلم هو ، بدلا من معين .

• • •

ياست مريم : أياك أن تتركى « معين » على هذه الشقاوة فأنها لن تنفعه بل ستؤذيه .

قالت مريم تسأل : وماذا فعل معين يا شيخ مرزوق ؟

قال الشيخ مرزوق : ربط الحارس .. وتلعثم الشيخ مرزوق ، فعاد يقول : ربط فردتى رباط حذاء الحارس ، كلا منهما بالأخرى ، فشل حركته وما كاد يخطو خطوة ، حتى سقط على وجهه ، فى الثلج المنفوش فكاد يموت بالاختناق !

وصاحت مريم فى الشيخ مرزوق تقول له :

• وصدقتهم يا شيخ مرزوق ؟ إنى وأولادى وجيرانى وأقاربى . نعيش تحت الثلج ، سنوات من عمرنا .. ولم نختنق بعد !

• يا سلام يا سيدنا الشيخ . أفكان الحارس سيموت ؟

• أبهذه الرقة ، يعيش جنـــود الليل ، ممن يحرسون نياما ، الموتى خير منهم ؟ !

• والنيام فى هذا الجو القارس .. أهم محتاجون للحراس ؟ !

• والحراس .. أهم لحراسة من ناموا ، أم لحراسة الحراس ممن ناموا ؟ !

ولم يستطع الشيخ مرزوق أن يلاحق هـذه السهام التى صوبوها إليـه ، فسكت وهو يقول :

• أنا رويت ما سمعته . ولم أكن استطيـع أن أفعل شيئا !

وترددت بين تكذيب ما اسمع ونفيه أو تخفيفه ، ليتركوا الصبى يعود إلى أهله وتعهدت أنا ألا يعود إلى هذا أبدا .

أشرأبت عنـق الشيخ مرزوق ، كأنما يتسمع صوت معين ، أين هو ، ليتجه إليه ، ويقول له :

. أتسمع يا ولد يا معين ؟ أنا تعهدت لهم ، فإياك أن تخذلنى .

قال معين وهو يضحك :

. أنت الذى تعهد يا عم الشيخ مرزوق ؟ أنت تنفذ . . لا أنا .

قال الشيخ مرزوق :

. لكنه تعهد من أجلك ، يا ولد يا شقى .

قال معين ، وهو ينظر الى أمه :

. ما رأيك يا أماه ؟

قالت مريم :

. أنا أريدك يا معين . من لى سواك يا ولدى ؟ من أجلى ومن أجـل أختك طاهرة . . .

قال معين :

. أنا أضحى روحى من أجلك ومن أجل أختى . .

. . .

ومضى الشيخ مرزوق ، وظل سكان هذا المخيم من مدينتنا يحيطون بالولد معين ، وهو يحكى لهم عما حدث .

. كنت ألعب مـع الأولاد . وكانت عادتنا أن نتبادل رواية ما يكون قد حدث لأى منا ، بعـد أن يبلغ بنـا التعب مبلغه . فأخذت أروى للأولاد

ماحدث لنا . وكيف أدبت جندى وردية الليل، لأنه داس بقدميه على وجنتى أختى طاهرة .

وكنا جميعا نضحك ونتفكه ، ونتصور هذا الجندى مغطى بالثلج .

. لكن كيف يغطيه الثلج .. أبهذه السرعة ؟

. الثلج وهو يتساقط عند الفجر ، يكون كثيرا وكثيفا وهشا أيضا .

. ويغطى الرجل ... !

. ... فى ساعة أو أقل .. يغطى الثلج فيلا بكل ضخامته .

. ويختنق كما يقال ؟ !

. كل شىء جائز !

. وما رأيك يا معين ؟

. ليس عندى حذاء كحذائه ، ولا فردة منه ، برباط طويل ومتين .. ولم يكلفنى أحد لأجيب .

. تصور ..

. أتصور ماذا ؟ .. أتصور انى جلاد .. بغير ضمير ؟ ! أتصور أنى أسير على الناس وهم نيام ؟ !

أتصور إنى أدوس بقدمى على وجنتى أختى طاهرة ؟

.. وقال الولد مهند ، أنه حاول ما قام به معين مرة ، لكنهم ضبطوه ، وفى اليوم التالى ساقوه ليعاقب .. وقالوا له ، أنهم يكتفون هذه المرة بتشويه بعض أصابع يمناه ، حتى يعجز عن تكرار مافعله .

وصاحت صوبم :

. وشوهوا أصابع يمناه ؟

وأجاب معين :

• نعم فعلوا .. وهو يصرخ من آلام لم يسمع من قبل ، شيئا عنها .

وفى صوت مذعور أضافت مريم :

• هل قطعوا أصابع يمناه .. ؟

وأجاب معين :

• شوهوا أصبعين من أصابعه الخمسة .

وبدأ كل الموجودين فى هذا الجانب ، من أهل مدينتنا ، يتحدثون حديثا عجبا .. واختلطت الأحاديث وتداخلت ، حتى ضاعت معالم بعض الكلمات .

• ولماذا .. اليمنى ؟

• ليعجز ..

• عن ماذا ؟

• عن معاودة العدوان على حراس الليل .

• أو ما تؤديه .. يمناه .

• فأن استعمل يسراه ؟

• أفهذا سهل .. ؟

• بعض الناس يولدون ..

• قلة .. ضئيلة جدا ..

• وما المقصود بهذا التشويه ؟

• تعويق اليد عن أداء وظائفها .

• وما وظائفها ؟

• تكتب .. تعزف الحان النصر .

• وتحمل الأثقال ، .. وتؤدى الأعمال الهـامة .

• واليسرى .. أفلا تحل مكان اليمنى ؟

• بالتدريب الشاق الطويل .

• وتظل — مع ذلك — على درجة أدنى من الكفاية والقدرة .

• أفيستطيع « الأشول » ان يستعمل السلاح ؟ بنفس الكفاية ؟

• استعمال السلاح ، ليس بالأمر السهل .

• لكنه ليس بالمستحيل ، على الأشول ، أو « الشطلاوى » بلغـة أهل مدينتنـــا .

وشردت مريم ، وشرد معها معين ، وكان طوال الوقت قابعا فى حضنها وأمسكت مريم بكف معين .. اليمنى ، لتقبلها ، ولتطمئن عليها ، ولتبث فى وجدان معين ، الحذر على كفه اليمنى هذه .

وعاد الشيخ مرزوق ، وقد ازعجته الأصوات . وكان الشيخ كفيفا ، لكنه كان خفيف الروح ، يحب المزاح ، ويحفظ قاموسا من النكات والقفشات .

قال الشيخ :

• ماذا تفعـلون ؟ اصواتكم ازعجتنى ، فلم استطع النـوم ماذا يشغلكم ؟ الولد معين وقد عاد .. والبنت راشيل صحبته ..

وعلى غير اتفاق ، ارتفع اكثر من صوت يتعجب :

• راشيل .. راشيل .. ومن راشيل ؟

قال معين ينادى البنت الشقراء .

. تعالى يا راشيل ، تعالى . لماذا تقفين بعيدا ؟

وتقدمت الفتاة الشقراء ، لكن فى شىء غير قليل من التردد ، فذهب معين إليها ، ليشدها ويقربها من أمه مريم .

قال معين لراشيل :

. هذه أمى .. مريم .. احلى الأمهات .

ثم التفت إلى أمه وهو يقول لها :

. وهذه راشيل يا اماه .. احلى الصديقات .. اليس كذلك يا امى ؟

واصيب الناس المتجمعون فى هذا المخيم من مدينتنا بالصمت المبهم !

حتى راشيل صمتت ، وهى تواجه هذا الموقف .

وشعر الشيخ مرزوق ، بحاسه المرهفة بأن الموقف تجمد كالثلج ، وأنه يحتاج إلى بعض من نار .. ليذوب .

. وكان ياما كان .. ياسعد يا اكرام .. ما يحلى الكلام ، إلا بالصلاة على خير الأنام ..

وترددت الصلاة على النبى من الأفواه ، والشيخ يقول فى خفة روحه :

. احكى « حدوته » ؟ أتريدون الاستماع إلى « حدوته » ؟

قالت مريم :

. ابدع من « الحدوته » التى نحياها يا شيخ مرزوق ؟

قال الشيخ :

. ابدع .. ؟ طبعا ابدع .. !

قالت مريم :

• كنت تؤذن للصلاة ، وتؤم الناس .. واليـوم تحكى « حواديت » يا شيخ مرزوق ؟

قال الشيخ مرزوق :

• آه .. تذكرنى مريم بالذى مضى .

قالت مريم :

• وبالذى نحياه .. لا نزال .

قال الشيخ في تهكمه اللاذع :

• قالت نحيا .. مريم قالت نحيا ..

وعاد الصمت يعم اللحظات وبعدها قالت مريم ترد على الشيخ :

• يقولون هذا « ياسى الشيخ » !

قال وهو يمط رقبته :

• عيبك يا مريم أنك لا تصدقين ، أنك تعيين الآن أجمل سنوات العمر .

قالت مريم :

• أرمـــلة !!

قال الشيخ :

• يا مريم .. يا أرملة .. الحياة جميلة .. لكل الناس ، حتى الأرامل !

قالت مريم :

• تحت غطاء الثلج .. !

قال الشيخ مرزوق :

• « وماله » غطاء الثلج ؟ ! و « ماله فضاء الصقيع » ؟ !

قالت مريم :

. .. يحفظ الأشياء طازجة !

قال الشيخ مرزوق وهو يتغابى :

. ماذا يحفظ الأشياء طازجة .. يا أرملة .. ؟ قولى ماذا ؟

قالت وهى تتغابى مثله !

. الجنة !. هذه الجنة التى نعيش فيها !

قال الشيخ مرزوق :

. أفهذه جنة يا مريم ؟

قالت مريم :

. اجمل من جنة ..

قال الشيخ مرزوق :

. لا لا .. هذا هو الجحيم .. يا أرملة .

وبدأت الأصوات تختلط مرة أخرى بين أهل المخيم :

. .. ولا هذا جحيم !

. قولوا لنا أولا ، هل نحن أموات لنحاسب ؟

. لقد حوسبنا ..

. وأصبح الجحيم مثوانا .. ؟

. شقينا طوال العمر وصبرنا ..

. ثم نساق .. إلى مانكره ؟ !

. كنا أولى خلق الله بجناته .

. لماذا .. ؟

. لأننا قاسينا المر ..

. ليست الجنة مقصورة على من قاسى .

. هذا عجيب .. !

. والأعجب ان يتصور الناس ان الجحيم ..

. .. جحيم ! !

. إذن نحن قدمتنا .

. .. و بعثنا لنحاسب .

. وحوسبنا

. وآل المآل إلى هذا المصير .

. .. الجحيم ! !

. .. أو نخلد فيه ؟ !

. . .

كان معين يتابع ما يدور ، وهو بين ثلاث أناث جميلات .. أمه مريم ، واخته طاهرة ، وراشيل الشقراء .

وشعر بأن راشيل قلقة ، وانهـــا تتعجل العودة إلى الناحية الأخرى من مدينتنا ، حيث تعيش فى مخيم آخر ، بعد ان امسكوا بأبيها ، ثم طردوه ، إلى حيث لا يعلم احد .. ! هكذا حكت لمعين .

وفكر معين فى ان يسحبها ، لينسحب بها ، دون ن يتنبه لذلك احد . وأراد معين ان ينبهها إلى نيته ، لتتأهب .

ولم يكن امامه من طريق ، فى جـو الثرثرة التى لا تتوقف ، وفى وطيس المناقشات ، إلا ان ينبهها بوسيلة غير الـكلام : وعندما مـد معين يديه إلى كفيها ، اصطدمت بنحرها ، ثم بصدرها .

ولم يتنبه معين إلى شيء معلق ، حول عنقها ، لأن أية فتـــاة ، أو طفلة ، قد تعلق حول عنقها حلية ما ، حتى لو كانت هذه الفتاة أو الطفلة ، أخته طاهرة .

. تعيش وهى تلتحف الثلج !

. وقد يتجمد فى عينيها .. حتى الدمع !

. لكنها قد تتحلى ، ولو بصفيح بارد ! ! ملقى فى خرابات مدينتنا !

لكن الذى التفت إليه معين ، هو أن راشيل الشقراء ، قد ذعرت من لمسته ، وكانت على شاكلته .. بريئة .. ساذجة وبريئة ! !

فلما ثبت عينيه فى عينيها ، ليتعرف على ما ذعرت منه ، هاله منها ، إنها حاولت أن تفلت من نظراته ، لتجرى منه ، بعيدا عن أهل مخيمه هذا .

وعجب معين ، ودلت نظراته على أنه بين المرتاب والمتردد .

.. وفجأة قالت راشيل :

. هذا لا يخصنى ! أنا من هذا الشيء بريئة .. بريئة .. !

وعجب معين ، والتفت إلى شيء لم يكن ، حتى برهة ، يخطر على باله .

. ما هذا .. ؟

. .. ومالى به .. ؟

. يتدلى من عنقك .. !

. ربما وضعوه ، وأنا لا أدرى !

. من هم ؟

. .. هم .. هناك .. كفى ..

. يا راشيل قولى لى الحقيقة .

. أنا لا أعرف شيئا عنه .

ومد معين قبضته . نفس القبضة التى ربط بها فردتى حذاء الحارس ، فأوقعه على وجهه ، فى تل من الثلج المنفوش .

مد نفس القبضة ، ليقطع السلسلة من حول رقبتها ، ومعها هذا الشىء الذى يتدلى منها ، وقد صنعوه على هيئة حلية ، تتزين بها الفتيات ، كما تفعل راشيل ! !

عندئذ أصيبت راشيل بالذعر ، وبالفزع من الموقف . . وأخذت تهذى بكلام لا معنى له :

. أنا . . أبدا . . يامعين أنت تعرفنى .

. ألم تقل لى مرة أنك . . تحبنى ؟ !

. وها أنذا أقول أنى بالمثل . . أحبك .

. أنت رجل يامعين . والرجل لا يسترجل على واحدة مثلى ! !

. هل تؤذينى ؟ هل تقطع اصابع يمناى ؟ لأصبح كالولد مهند ؟

. أنه جهاز يسجل حتى الأنفاس !! لكنه ليس جهازى !!

. أو تعرف ماذا يحدث لى ، لو عدت بغيره ؟ أنتم ناس طيبون لكن هم . . هم . . ! أنت لا تعرف . أنا رأيتهم . . رأيتهم بعينى ، وهم يفقأون عينى أبى . ! !

ومضت راشيل تحكى لمعين ، فى أحد أركان المخيم : حيث لا يسمعها أحد .

كلفوه بمهمة ، وكانت المهمة تقتضيه ، أن يقبع فى قبو مهجور ، يراقب بعض تحركات يهتمون بها . ولما طلبوا منه ألا تغمض له عين ، طوال ثلاثة أيام بلياليها : قال لهم أبى ، أن للنوم سلطانا كما يقولون ، ولن يستطيع أحد أن يقاوم سلطانه ، إذا هو كبس عليه . حينئذ أعطوه بضعة أقراص يستعين بها ، فلا يغلبه النوم ، فيغمض عينيه ثم ينام ويحلم ! !

ونسى أبى هذه الأقراص . نسيها من خوفه مما قد يحدث .

وحدث بالفعل ما توقعه ، فقد أغمض عينيه رغما عنه ، فلم ير شيئا يبلغهم به . فلما تأخر ، أرسلوا يستدعونه ، وكنت معه ، ورأيتهم وهم يفقأون له عينيه ، فلا يبصر بعد ذلك أبدا . .

وأخذت أصيح ، واستنجد بأنسانيتهم . وهم يسمعون ويسخرون ! ! ولم يستطع المسكين أبى حتى أن يصرخ . . ! أسلمهم أمره ، وما كان بيده أن يعصى ! وعندما تم لهم قهره ، أمام الآخرين ممن شهدوا المأساة ليتعظوا ، فلا يتراخون عن تنفيذ أوامرهم ، على اية صورة ، وبأى سبب . .

عندئذ طردوه ، وهو . . أعمى !

طردوه بين جبال الثلج . . يتصور ؟ !

طردوه بين عصف الريح . . تتخيل هذا ؟ !

وشعرت ان ابى قد مات . هذا الطرد حكم عليه بالموت ، ولو انهم اعدموه لكان ايسر . صدقنى . . انا رايتهم ، ورايتهم وهم يرتكبون معه هذه الجريمة البشعة .

هل تصدقنى يا معين ؟ صدقنى .

لقد ارسلوا بعدها يستدعوننى ، وكلفونى بأن اعمل لهم ، وبهذه الطريقة . . كما ترى ! !

وها انذا اعترف لك يامعين ، بأنهم عرفوا قصتك مع حارس الليل من هذا الشيء ، الذى بيدك . انا اعلم ما يساورك من الشك . ولك ان تسأل نفسك عما تفعله بواحدة مثلى !

إذا اردت ان تقتلنى ، فأنك تخدمنى ! فأنا احلم بالتخلص من هذا الذى انا فيه ، ولا خلاص منه ، إلا بقتلى !

لـكنى التمس منك إذا رايت ان اعود ، الا اعود بغير هـذا الشىء ، فلن اتحمل ما يحدث لى . . صدقنى .

ومد معين يده اليها ، بهذا الشىء . . وفى عينيه دموع ، حجبت عنه الرؤيا ، فلم يتبين الشيخ مرزوق ، إلا وهو يصطدم بعصاه ! !

. . .

ومضى معين إلى طرف من اطراف المخيم ، ليفـكر فى مأساته .

واطل على الشمس ، قبل ان تغيب ، ثم اسرع الى امه ، فوجدها قد اعدت له طعاما كثيرا وشهيا . . اشهى ما تملك ! !

وقال معين :

. . . حسنا فعلت يا امى ، وإلا . .

قالت مريم :

. . . وإلا صدعت راسى طوال الليل .

قال معين :

. وازعجت اختى واولاد عمى . .

قالت مريم :

. . . والجيران !

وضحك معين ، وضحكت مريم ، لأول مرة ، منذ طلع الصباح .

. : .

وزحف الليل ، فأخذ اهل مدينتنا يسرعون بالعودة ، كل إلى مكانه فى المخيم الذى آواهم .

وأخذ معين يرقب المنظر ، وهو يهز رأسه ، مما آل إليه مصير الإنسان ! لماذا الذل يا دنيا ؟ ولماذا الناس يرضون بهذا الذل ؟

.. ليعيشوا ؟ لمجرد أن يعيشوا ؟ أن الدود .. دود الأرض يعيش ! الفئران تعيش ! تعيش بكل ما تحمل من صفات ! وجنسيات !

الزواحف تعيش ! الجراثيم تعيش !

. فهل هي ميزة ان يعيش بشر ، كما يعيش الشيء المهمل ؟ !

. ولماذا التسرع بالحكم على الأشياء ؟

. وعلى الحيوانات ، بل وعلى الجراثيم ؟

. إذا لم يكن هنا لك من الحياة هدف ، فلما نمضي فيها ؟

. ومن الذي يحدد هذا الهدف ؟

. الكائن الحي .

. والإنسان نوع من هذه الكائنات .

. . . الإنسان يسود الكون .

. أيسوده ! ! أصحيح هذا ؟

. أيسوده وهو مقهور ! !

. ومن ذا قهره ؟

. إنسان مثله .

. أبدا ! ! ليس مثله من فقد ضميره ، ليقهر أخاه ! !

. أمام الغاية ، تصبح كل وسائل القهر والغدر مباحة . !

. . .

كانت الحركة نشيطة فوق الثلج ، فى تلك الليلة الى أعقبت عودة معين إلى آله .

وبقدر نشاط الحركة فوق الثلج ، كان توتر أعصاب النيام .. تحت الثلج !

وجرت المناقشات فى همس ، وفى أقل عدد من الكلمات . بل أن الكلمات كانت تنسحب من الساحة تحت الثلج ، كلما أهتدى أهل المخيم إلى لغة أخرى تعفيهم ، حتى من هذا الهمس ! .

مثلا كان معين يمسك بكف أمه ، ليرسل إليها إشارات ، كالكلمات . . بل أفصح !

حركات الأكف ، صارت كلمات !

وحركات الأقدام ، صارت بدورها . . كلمات !

واقتراب الأجسام أو ابتعادها . . صارت أيضا . . كلمات !

واشارات أخرى ، اتفق عليها النيام ، بلا إعداد أو إستعداد ، كادت تقضى على اللغة حتى لو دارت همسا !

معين يمسك بكف أمه الأرمل ، ويضغط عليها مرة ، فتبادله نفس الإشارة ، وكأنما الحوار بينهما يدور . . سؤالا من معين وجوابا من أمه .

. . . نمت يا أماه ؟

. لا لم أنم بعد !

ثم تعود الإشارة ، على نحو آخر .

تضغط أمه على كفه مرتين ، فيرد عليها بالضغط على كفها مرة . . كأنما الحوار يدور . .

. نم يا حبيبى أنت تعبت .

. لا يا أمى . أنت تنامين ، وأنا أسهر أحرسك وأختى .

. . .

طاهرة كذلك شاركت فى هذه اللغة الجديدة . .

ولم يكن صعبا على أمهم ، أن يستعملها ، أو أن يتدرب عليهـــا قبل أن يستعلمها ، فهى كالمارسيلييز ، لحن نابع من وهج الثورة . . من الهم والعرق والدموع . . ! وكل هذه أدوات ، لاتحتاج لتعليم أو تدريب ، فهى جزء من كيان الإنسان ، دفعته المحنة ، فتكلم .

كانت مريم على حق ، عندما أزعجها القلق ، طوال الليل .

. الليل .. ؟ ! واين الليل ؟

. أنه يأتينا عندما يسود الظلام .

. فإذا كانت حياتنا ظلاما موصولا . .

. فلماذا الليل .. ؟ !

. . .

فى الصباح ، وأشعة الشمس ، تنتشر على التلال الثلجية ، فى مدينتنا ، كان الأولاد قد اخذوا يلعبون العابا شتى .. !

. يتزحلقون على الثلج ؟ !

. ويكونون من الثلج المنفوش كرات بيضاء ، يتبارون بهـا ، ويتحاربون بها أيضا !

. وألا يثنيهم عن مرح الصبية ، الدمع المتجمد ، فى عيون ، أرهقها البؤس؟!

. الصبية ليسوا طرفا فى اللعبة .. !

. أنهم يتركون الأحقاد لذويهم .. فالانسان الطيب لا يحقد .

. والصبية طيبون .. نعم طيبون ، وإلا ما قبلوا . . !

. لـكن العالم ، لا يمكن أن يصبح عالم صبية .

. ليته يصبح عالم أطفال .. !

. ليطلق كل طفل ، النار على أخيه و يضحك !

. وأخوه يبادله الطلقات .. كما يبادله الضحكات !

كل الأطفال كانوا يلعبون .. كعادتهم !

وكل الصبية كانوا يلعبون .. كعادتهم كذلك !

. وهم جياع .. يلعبون !

. وهم عرايا .. يلعبون !

ومريم ترقبهم ، وتقول لجارتها فى المخيم :

. دعيهم يلعبون ، قبل أن تصبح ألعابهم ، ملطخة بالدم ! !

كانت مريم تشعر ، بأن شيئا ما سيحدث . وكانت تخاف من هذا الشيء ، وتعمل له ألف حساب .

هل يتكرر ماحدث لمعين ؟ هل يأخذونه إلى حيث لا يعرف أحد له أثرا ؟ ولماذا تركوه من قبل ؟ الشيخ مرزوق يقول أنه تعهد ، بألا يعود معين ، إلى معاكسة حراس الليل أبدا . ومعين يضحك منه ، ويقول له ، أنه هو الذى تعهد فليمض إذن ينفذ ما تعهد به .. ! وتضحك مدينتنا حين تراقب ، الشيخ مرزوق ، وهو يضرب الأرض بعصاه ، ويهدد بألا يتدخل بعد ذلك ، ليرد صبى إلى أهله ، فكل الصبية شياطين ، ومن يتدخل لصالحهم ، كمن يتدخل للإيقاع بهم .

ويتجمع بعض من أهل المخيم ، حول الشيخ مرزوق ليتسامح مع الصبية ، فكلهم أولاده ، وهم يحبونه حبا بغير حدود ، ثم ان مايحدث لهم ، يحطم قلوب ذويهم .

قال الشيخ مرزوق :

. آه لو عرف الصبية ماذا يسببونه لذويهم !

قالت مريم :

. صبية . هم صبية يا شيخ مرزوق ، يحتاجون للنصح .

قال الشيخ :

. يا مريم . ! انهم لا يسمعون النصح .

قالت مريم :

. من طول ما قاسوا . أتظن أن « معين » أبنى ، لا يحيا فى محنة والده المسكين ؟ أتظن أن منظر والده ، وهو جريح يتألم ، ويحاول أن يتماسك ، حتى لا يشمت فيه عدوه . . أتظن أن « معين » يستطيع أن ينسى ما قد سمعه ؟ !

قال الشيخ مرزوق :

. قولى لى يا بنتى . . أفكان أبو معين عطشانا وهو فى النزع ؟ !

قالت مريم :

. نعم ياسى الشيخ كان عطشانا . . يشير إلى حيث الماء ليشرب . . وعندما ذهب إليه بالماء ، أطلق واحد منهم النار على إناء الماء . فحطمه . . وسال الماء قبل أن يبل الرجل ريقه ! أفهذا المنظر ينسى؟ ! أفينسى طفل شهد أباه وهو يريد الماء ليشرب ، فيعز عليه الماء ، فيقتله العطش ، مع طلقات الغدر ؟ !

وهز الشيخ مرزوق رأسه ، وهو يتألم ، ولم يستطع أن يمنع دموعه ، عن أن تطفر من عينيه .

ونظرت طاهرة إلى الشيخ تشاركه الدمع . . لكنها عاودت النظر إليه ،

وعلى طرف لسانها سؤال ، همست به لأمها مريم :

. كيف يا أماه يبكى الرجل وهو أعمى ؟

ولم تتنبه طاهرة إلى أن الرجل قد كان قريبا منها ، فسمع ما همست به الصغيرة ، لأمها الأرمل .

وهز الشيخ مرزوق رأسه ليجيب :

. أنا يا بنتى أعمى ، من كثرة ما أرسلت من الدمع ، لكن دموعى لم تجف فأنا لا أملك إلا هذه الدموع ياصغيرة ! وما ترينه يتساقط الآن من عينى ، ليس هو أشد الدمع على ! إنى أبكى وحدى ، أضعاف أضعاف بكائى والناس ترانى ! !

لقد ذهب الرجال من سنى . . قتلوا أو أغتيلوا أو خرجوا ، لتكون لهم عودة عندما يحين الحين .

الأعمى لا يرى ، لكن الأعمى يبكى يا صبية .

وبكاء المبصر يا بنتى يتعرض الأستحياء ، حين يراه الناس ، أما الأعمى فأن بكاءه ، أكثر حرية من بكاء المبصرين جميعا .

أنا لا أعرف ما شكلى ، حين تسيل دموعى . . .

هل أتغير ؟ هل أثير الاشفاق فى قلوب الناس ، أم أثير السخرية من شكلى ؟ !

على كل حال يا بنتى ، أنا أبكى أصدقاء ذهبوا عنى ، ليشقينى البعد ، وليزعجنى ما أسمعه عنهم .

. . .

فجأة ظهرت راشيل ، لتقول للشيخ مرزوق : أنهم هناك ، يريدونك .

وأرتفع صوت مريم وطاهرة تسألان في وقت واحد ، عن معين ، وهل رأته راشيل اليوم ؟

ولم تجب راشيل ، ولم تنطق ولو بحرف واحد .

.. وإنما استدارت الشقراء ، وأخذت تعدو .. وتتزحلق ، لكنها كانت تقف .. لتعدو .. كأنما هي في سباق ، أو كأنما هي تفر من شيء تخافه وتخشاه وهي — وحدها — تراه وتهرب منه !

وقطب الشيخ مرزوق !

تجمدت دموعه ، وهو يدب على الأرض بعصاه ، ليستدير ... ليلحق براشيل ...

فأنهم هناك .. يريدونه !

... وحبسوا مريم فى الجب ، كما فعل أولاد يعقوب بأخيهم يوسف ! ومثلما صبر يوسف على بلواه ، صبرت مريم .

وفى الجب ، شعرت مريم ، بأن الجب ، يمنع عنها غدر المجهول ، وهو دائما مجهول ! لا يكشف عن نفسه !

لكن مريم شعرت بأن هـذا الجب لا يعزلها عن آلام ، غاصت فى قلبها المفجوع ، واستقرت فيه لتنمو !

أين أنت يا معين ؟ هذه المرة أخذونى فيك يا كبدى . . ! وليس مهما أن أسجن ، لكن المهم ، أن تنجو أنت ، وأختك . . أنا جزء من كتاب التاريخ . . أنا الجزء الذى ولى وأدبر !! أما أنت ، فأنت المستقبل ! والمستقبل هو الأفضل يا ولدى .

- بل الماضى أفضل !
- أفهذا حكم مطلق ؟
- طالما أنه يهز مشاعر أساتذة الفن والتاريخ !
- أ للفن . . أساتذة ؟
- لابد أن يكون للفن أساتذته ، وإلا فكيف يورث ؟
- أن يكن الفن مادة فى منهج ، فهو يحتاج لأستاذ .
- الفن هبة من عند الله ، تكمن فى الفنان ، ويوم يصير مادة فى منهج ، « يذبل » ويموت .

وتعود إلى مريم ، ذكريات الأيام الأخيرة ، التى سبقت أيام الجب .

كانت مريم تعانى من الخوف على معين ، وتضطرب عندما يسألونها عن معين الهارب ، وقد أفلت منهم بحياته .

* * *

- أين الهارب أيتها المرأة ؟
- أتحدثنى ؟
- .. ولماذا تتخابث واحدة ، تعلم ان السؤال لها ؟
- أى سؤال يا هذا ؟
- أنا لست « هذا» ايتها المرأة .. انا هنا سيد يأمر فيطاع .
- يا عجبا ، وبأية حجة تتسيد ؟
- ليست حجة ، فالوضع القائم ، واقع .
- ... مفروض !
- بالقوة .. ؟ اعرف !
- وبضعف فينا ؟ نحن ايضا .. نعرف !
- وما سبب الضعف ؟
- أنتم .
- ابدا .. الضعف امام القوة ، طبع فيكم .
- إذن لماذا تهتمون بمن يهرب ؟
- هذا ليس بشأنك . اين الهارب ؟
- بالعقل يكون جواب سؤالك هو أن الهارب ، فى مهربه .
- أنا حذرتك مرة من أى تخابث .
- أفهذا تخابث .. يا هذا ؟ !

- تعودين إلى هذا! قلت لك أنى سيد يأمر فيطاع .
- أنسيتنى هذا .. يا هذا !!
- ما هذا ؟ أسمعت ؟ ما هذا ؟
- انت ايضا أيها السيد ، تقول ... هذا !! وما هذا ؟ !

* * *

ولم يحتمل الرجل الحوار مع مريم ، فصاح فى جمع من حراسه : خذوها خذوا هذه المرأة . . أدفنوها فى الجب حتى تفيق ، وسيكون أمامها فرصة أخرى .. دعوها تسمعنى . . أنا قلت ...

قالت مريم فى سرعة ، ولم تمهله ليمليها :

أنت قلت فرصة ... أخرى ! سيكون أمامها فرصة أخرى . . أنت قلت وأنا سمعت .. والله سمعت .

ولم يطق السيد هـذا الحوار ، فدفع الحراس ليأخذوها ، حتى لا يفقد أعصابه ، ويطلق عليها النار .

قالت مريم للحراس ، وهم يدفعونها أمامهم :

اتركوه يطلق النار على ، ارحم ! من فضلكم اتركوه !

ونظرت مريم إلى « السيد » ، وهى تقول له :

ها أنذا أمامك يا هذا ! عفوا ! .. اطلق على النار ايها السيد ..

لماذا تنتظر ؟ وماذا تنتظر ؟ ألست هنا سيدا ، يأمر فيطاع ؟ إنى أمامك عزلاء حتى من سوء النية !! فنفذ وارحمنى !!

عندئذ بلغ التوتر بالرجل ، حدا لم تحتمله أعصابه ، فأخذ يروح ويجىء وسلاحه فى يده ، يحركه بين حين وحين ، وكأنه على وشك الأنفجار ، وإطلاق الرصاص ، على مريم .

وجاء أحد رجاله ليسر فى أذنه ببضعة كلمات ، ثم يعود من حيث اتى .

وظل الرجل يتململ ، كأن النار تحرق ثوبه !

كان يسير بضعة خطوات ، ثم يقف ويتجمد ، وعيناه مثبتتان فى عينى مريم ! وقد ينفخ نفسا من نار ، يكاد ان يحرق صدره .. ! ثم يعـود فيسير متعجلا كالخائف .

وصاح الرجل فى الحراس : اين الكاتب ؟

وأرتبك الحراس ، وهم يتلقون الأمر ، وأخذوا يهرولون ، ويصطدم الواحد منهم بالآخر !!

وضحكت مريم وهى ترقب هؤلاء السادة ، يتراجعون إلى مرحلة الرق يملكهم من يتملك !

وتشرد مريم ، فتتلاشى ضحكاتها ، وتذوب فى بحر واسع ! وتكاد مريم تسمع أصواتا تجلجل فى داخلها .

. ومن ذا يتملك .. ؟

. الأقوى ..

. ... يتملك حتى الناس ؟ !

. طبعا . حتى الناس ..

. ويقبلون .. ؟ !

. وهل يقبل المغلول العـلة ؟

. فاذا لم يقبل ، فماذا يصنع ؟

. يقاوم حتى يتخلص منها .

. وقد ينجح ، وقد يفشل .

.. و إلى أن ينجح ، يقبل ما أصابه من مكروه ...

. .. ليس أمامه طريق آخر .

.. كذلك .. أتقول الرق ؟ لنقل قهر الإنسان وإذلاله .

. هذا أصعب على النفس من الرق .

. فى أقل القليل ، الرق نظام ، أما القهر والاذلال فهو خروج على أى نظام ، وتحطيم للإنسان ، حينما يتحول إلى حيوان مستأنس .

. ويتحدثون عن الحرية !

. لتصبح مجرد قصة تروى !

. ويضيع ما فيها من معنى .

. أو يموع المضمون .

. وحقوق الإنسان ؟

. .. تضيع مع ما ضاع :

. . .

ودخل الكاتب ومعه صحائفه ، والحبر والنشاف ، والشهود وتحقيق جاهز . فيه ما فيه من التهم ، وكل تهمة منها تستحق حكما بأعدم المتهم بها .

وكان الكاتب يلهث من تعبه .

وعندما واجهه السيد بالثورة عليه ، لم ينبس ببنت شفة ، واكتفى بأن نظر إليه ، يقيسه طولا وعرضا ، فهدأ السيد ، وبدأ يلين ، والكاتب لا يتكلم !

قال السيد للكاتب : أريدك أن تفتح صفحاتك للتحقيق مع هذه المرأة .

قال الكاتب للسيد : والتهمة ؟

قال السيد للكاتب : التعاون فى تهريب صبي يشعل الفتنة بين الناس .

قال الكاتب للسيد : جاهز . التحقيق جاهز .

قال السيد للكاتب : والحكم .. أهو .. جاهز ؟

قال الكاتب للسيد : يجهز ! بسيطة ! .

وهمس السيد فى أذن الكاتب ببضعة كلمات ، فرد عليه الكاتب بكلمات أخرى، فعاد السيد إلى كلماته ، وعاد الكاتب إلى صفحاته ، وظلت الأصوات تنتقل مع الهمس إلى ما قبل الجهر ، ومما قبل الجهر ، إلى الهمس ، وأفلتت بعض الكلمات فسمعتها مريم .

. جاهز .. ألم أقل لك ؟

. لماذا نتعب والتحقيق جاهز .. ! لمـاذا ؟

. نكمل الشكل ؟ !

. لمن .. ؟ هذا ليس امتحانا أمام ممتحنين !

ثم استمر يقول :

. من ذا يراجع علينا ؟ أنا لا أقبل .. ويجب ألا تقبل أنت أيضا !

وصاحت مريم فى الوجوه التى تحيط بها : تفضحون أنفسكم بأنفسكم !! ولن تنفعكم تحقيقات مطبوخة ، تصلح لكل اتهـام ، من السب العلنى ، إلى الخيانة العظمى ! كله جاهز .. وعلى المقاس !

. . .

وبدأ التحقيق مع مريم ، والكاتب يشرف على مساعديه ، ليعدوا التقرير ، أو ليختاروا للذنب ، تقريرا مما هو جاهز ، أو يفصلون له تقريرا خاصا به!

. ما أسمك ؟

• مريم ..

• العذراء .. ؟

• العذراء معجزة لا تتكرر !

• .. إذن اختارى صفتك .

• الشماء .

• كبيرة هذه الصفة عليك .

• لماذا .. ؟

• أين الشمم فيك . ؟ أنت سجينة !

• ولأنى سجينة ، أقاوم محاولات القهر والإذلال ، فأنا شماء .

• قولى ما تشائين .. أكتب يا كاتب .

• أكتب أنى مريم .. مريم الشماء .

• وأين الهارب ؟

• وفيما تريدونه ؟

• لنحاكمه .

• وما ذنبه ؟

• الهرب .

• أفذنب أن يهرب المخلوق بجلده .. لينقذ نفسه ؟

• ولماذا يهرب ؟

• ولماذا لا يهرب ؟

• لأن الهرب جبن ووضاعة .

• لا تلصق بأبنى صفات ليست فيه ، لتعبر عن عجزك .

• عجـزى ؟ !

• وغلك ..

• ستعرفين .. كيف أعيده ، ليحاكم ! !

• سينجو .. معين سينجو .. أن الله سينجيه .. منكم .

• وهل يرضى الله أن يهرب خلقه ؟ومن .. ؟ من المختارين من خلقه ؟ !

• المختارون ! هل هم مختارون لتعذيب الخلق ؟

• هم مختارون ، ليسودوا الأرض .

• ومن ليسوا مختارين .. يسلمون أمورهم لمن ؟ !

• للشعب المختار ...

• وتستكثرون أن يهرب من يهرب ؟

• ولماذا لم تهربى معه ؟

• لم أعرف بموعد هربه .. ثم إنى مسئولة عن ..

• تقولين مسئولة عن من ؟ قولى أفضل لك .

• عن أسرة .

• وأين تعيش الأسرة ؟

• مثلما يعيش أهل مدينتنا .. تحت الثلج .. !

. . .

• تكذبين .. !

• أبدا .. ولماذا أكذب ؟

• لتحمى شريرا آخر ، يستعد لأن يهرب .

• أنا لا أعرف أشرار الناس .

• • •

وتوتر الجو وتكهرب .

ووقف كل فى موقعه لا يتحرك !

وبدا المنظر كاللوحة القديمة ، بمناظرها وشخوص واقفة تنظر فى بلاهة وغباء ، كأن الحركة خطر على أى منهم !

السيد فتح فمه ، راود نفسه . ساوره الإحساس بأن لمريم علاقات أخرى غير أمومتها لمعين . هل لها غير معين ولدا ؟

وأجاب الشيخ مرزوق ، عندما سئل ، بأن مريم كان لها زوج ، مضى إلى حتفه ، وأنتم تعرفون ذلك كله أما الأبناء ، فليس لها إلا معين ، وهو ولد ثرثار .

قال السيد : وشرير . . !

قال الشيخ مرزوق : أنا أعرف أنه ثرثار ! مافى قلبه ، فوق لسانه ، لا أكثر .

قال السيد : ومن أصدق أصدقاء معين هذا ؟

قال الشيخ مرزوق : الولد مهند .

قال السيد : وقد هرب معه .

قال الشيخ : ياه . . ! أصحيح هذا ؟

قال السيد : أسمع يا شيخ مرزوق . أنت تعرف أننا نأمن لك ، ونحبك . ونقدر فيك الاخلاص .

قال الشيخ : أنا يا سيدى ، أعيش لأقدم الخـير للناس جميعا . أنا رجل ضرير ، أرى ببصيرتى ، وهى لا تكذبنى ، ولا تخدعنى ! والناس قد تعلم منى لأنى أعمل معكم .

قال السيد : نعرف هذا كله .. لكنك ..

قال الشيخ : لكنى أخدمهم وأخدمكم ، فتنجون أنتم من هوس الفتيـان والفتيات ، وينجون هم من غباوة بعض الحراس لديكم .

قال السيد : لولاك ياسى الشيخ ..

قال الشيخ : أعرف ، لكن ماذا تقول للفتيان والفتيات ؟ أنتم المسئولون عن مسلكهم ! !

قال السيد : أفنحن المسئولون . ؟ ياسى الشيخ !

قال الشيخ : أنا رجل ضرير لا أرى صور الأفلام . لكنى أسمع الأولاد يتحدثون عن بطولات شريرة ، فى أفلام من صنع أياديكم . والأفلام تغرى أبناء جيل ناشىء ، بأن البطولة تعنى القتل وسفك الدم ، والسطو على القلاع المحروسة ، بعقول ألكترونية . هذه هى البطولة عند الجيل الصاعد . صاعد ! صاعد إلى حتفه ! !

قال السيد : فى هذا عندك حق . لكن الأفلام ليست من صنع أيادينا .. نحن أيضا ضحاياها .

قال السيد : وبهذا نتلاقى ..

قال الشيخ : من بمن ؟

قال السيد : نحن وأنتم .

قال الشيخ : فيم ؟ فيم يكون تلاقينا ؟

قال السيد : فى أنا — كلانا — ضحايا آلة حرب جديدة ، تخترق صفوف الأولاد ، لتخدرهم !! فيكون العدوان ، ويكون رد العدوان! وسواء كسبوا أم خسروا ، فالمهم عند الطرفين ، أن يظهر شباب الجيل الصاعد هذا ، بمظاهر فرسان العصور الوسطى!! الغالب والمغلوب، يتركون الحكاية للتاريخ يرويها . لكنهم يمضون حيث الأخطار والمحن، وتجمعات فى الحقل أوالمصنع أومنتديات الأحزاب ، ليصبحوا — أن غلبوا — فرسان النصر ، وأن غلبوا ضحايا التحرير !! وهم أبطال فى الحالين ، تتحدث عنهم كل الالسن . وهذا حسبهم، فهو يكفيهم !

. . .

وكانت مريم فى الجب مشغولة بمعين ، فنسيت ظـلام الجب ، وسمك الجدران ، والقلق عما يمكن أن يحدث لها ، على أيدى هؤلاء السفاحين .

وراودها هاجس ، يعاتبها . .

. . وطاهرة . . أليست بنتك ؟

هى بنتى وأختى وصديقتى . . هى فى نفس مكانة معين ، على أن الذى يطمئننى عليها ، أنها ليست مطلوبة لذاتها . قد يهددون بها الولد للسكين ، أما أن تصبح هدفهم ، فذلك بعيد . . !

ثم أن أولاد عمومتها معها . سيدات وفتيات ورجال وشباب ، كلهم على أستعداد لحمايتها ، ردا لجميل أبيها .

. . كان رجلا عظيما ، عزيز النفس ، قويا ، يعرف كيف يعامل أعداءه .

لقد أخذ يدافع عن أرض مدينتنا ، دفاع المستميت ، فلما نجا أهل مدينتنا أخذوا يبحثون لأنفسهم عن مأمن ، وعز على النازى أن يفلت أحد بحياته ، فأعدوا العدة لحصادهم ، وهم تحت نيران بنادقهم . لكنك يا زوجى ، كنت

بطلا .. أخذت مجموعة صغيرة من زملائك ، وعقدت العزم على شد الانتباه ، إليك ليبتعد أهل مدينتنا عن الخطر أو القتل .

وسقط جميع أفراد مجموعتك ، فلم تيأس أو تستسلم ، ومضيت تحارب وحدك ، فلما أطمأنت نفسك إلى أن أهل مدينتنا قد أحتموا من الغزو فى سهل آمن ، أبيت ألا أن تمضى تقاتل ، وتبــذر فى أرض مدينتنا الشوك والحنظل ، حتى ضجوا ..

وتكاثروا حولك يا زوجى الحبيب ، فأصابوك ، بعد أن امنت الحياة للرجال والنساء والأطفال .

وطلبت ماء لتبل به شفتيك ، فمنعوها عنك ؛ لتموت محروما من قلة ماء حملها إليك معين ، لكنهم اطلقوا النار على القلة ، وهى على كفه فسال المــاء على الأرض ، لتموت يا سيد الشهــداء محروما حتى من شربة ماء !! شهيدا .. ككل شهيد سبقك .

* * *

ألا ليتهم اصابونى انا ، وتركوا قلة الماء ، لتبل بها شفتيك !

أو تعرف يا زوجى الشهيد ، أن معين — وهو طفل — كان فى احيان يسألنى :

· وما معنى الشهيد يا أماه ؟

· من يستشهد فى سبيل الله ، والوطن ، والناس .

· وهل لابد للشهــادة من حرب يا أماه ؟ . ألا يستشهد الشهــداء إلا فى الحروب ؟

· أية حروب ؟

· لا أدرى .. !

. لو قامت حرب ، لتحمى ظلم الانسان وجشعه .

. وقد يسقط فيها من يسقط .

. وتسأل أنت هل يعتبر القتيل فى حرب كهذه ، شهيدا ؟

. نعم هذا سؤالى يا أماه .

. لا يا أبنى . الشهادة أسمى .

. وهل تقتصر على حرب الغازى مثلا ؟

. هذا غرض سام يا أبنى ، لكنه ليس كل الأسباب .

. هل يعتبر شهيدا من يموت من عطشه ؟

. .. لو مات وهو يجاهد فى سبيل الله والحق والعدل . فهو شهيد .

. هذا ما أردت أن أقف عليه .

. لماذا يا معين ؟

. لاتأكد مما كنت أقوله للولد مهند .

. وماذا قلت له ؟

. قلت له أن أبى حقق شهادتين ..

. .. وكيف ؟

. لقد أصابوه بالطلقات . فأصبح بطلا وشهيدا .

. وموضع فخر كل أهالى مدينتنا يا معين .

. لكنه أيضا مات وهو عطشان . أليس كذلك ؟

. نعم هذا هو ما حدث .

. وبهذا حقق بعطشه شهادة ثانية .

• لكن ...

• وكان أبي يطلب ماء وهو فى معركة من أجل العدل والحق والكرامة.

• هذا صحيح .

• ولم يدرك قصده ، ومات قبل أن يبل ريقه . . فأصبح شهيدا آخر .

• تعنى . .

• نعم أعنى أن أبي بهذا صار شهيدين !

• كم أنت محظوظ يا معين !

• المحظوظ هو أبى .

• . . وأنت ؟

• أنا محظوظ ، من أجله .

• يارب أحفظه لى . . أحفظ « معين » لى ...

• وللناس يا أمى .

• وتقتص لأبيك ؟

• وأثأر له ، ولكل الشهداء .

• وتعدنى ألا تتعجل ، فقد تذهب أنت أيضا قبل الوصول إلى الغاية ؟

• أعدك يا أمى . . أعدك .

• • •

ذكر معين وعدا قطعه ، لأحب الناس اليه ، وكيف كان واجبه أن يبقى معها ، ولو دفع حياته ، فداء عنها : أليست أمه ؟ وأليست أرملة ؟

وشعر معين ، بأنه لم يحفظ وعده ، وأخذ يفكر فى أمه ، وما تواجهه

الآن .. ! وفكر فى طاهرة ، وماذا تذكره عنه .. وقد تركهما تحت رحمة باغ شرير ، يتلوى من حقده .. !

لكن « معين » نظر حواليه ، فى الفضاء الواسع ، ولم يشعر إلا بأنه يصيح : يارب .. ! وما كانت إلا صيحة ، ثم ساد الصمت !

وأقبلت راشيل ، لتحتمى بالصيحة من هواجس مرة !

ولم تشعر إلا بأنها تصيح هى الأخرى : يارب .. !

وترددت الصيحة فى هذا الفضاء ، وظلت أصداؤها تنتقل من لحظة إلى لحظة ، ومن قلب حطمه اليأس ، إلى قلب يملأه الإيمان .

ونظرت راشيل إلى معين ، وقد أغرورقت عيناها بالدموع ، وشعرت نحوه بحب ، لم تسمع عن حب مثله .

قالت الشقراء :

. أنادم أنت ؟

قال معين يرد عليها :

. نادم ؟ ولماذا الندم يا راشيل ؟

قالت راشيل وهى تجفف مآقيها من الدمع :

. أنا سبب كل هذا ؟

قال معين :

. وكيف تقولين هذا يا راشيل ؟

قالت راشيل :

. أنى قدمت لهم الشريط ، فسمعوك .

قال معين :

• أفكانوا يعجزون عن العثور على سوالك ، ليؤدى نفس المهمة ؟

قالت راشيل :

• .. وأنت هل تغفر لى ؟

قال معين :

• لا أنا ولا سواى بغفار .. الغفار هو الله يا راشيل .

ومرت لحظات صامته ، شرد خلالها كل منهما، فى أمنية تراوده بين الحين والحين ، لكن أحدهما لم يجرؤ بعد على الجهر بها ! !

* * *

ودار حديث صامت بين راشيل ومعين ، ونظرات كل منهما ، فى عينى صاحبه ، ثم تنفست راشيل ، كأنما تستعيد حياة هربت منها ثم قالت :

• ولم لا نجهر بالحب ؟

• لا أدرى ! !

• أنقاسى الحرمان ، ولا نحاول أن نتخلص منه ؟

• هذا قدر كتب علينا .

• من ذا كتبه .. ؟

• من كانوا قبل ، فى نفس الموقف .

• تعنى ليلى والمجنون .. مثلا ؟

• ورميو وجوليت .. وكل العشاق ممن سبقونا .

. وأصبح علينا أن نحنى الرأس ، لميراث أنكد ؟!

. فإذا رفعنا القامة ، نتحدى الماضى ، حطمنا الماضى ، ليتمط العشاق . . !

. فإذا لم يتحطم . . ؟

. تحطم شبح الماضى ، من ساحة عشاق العشق .

. وكيف الماضى يتحطم ؟

. بأن ينسى ! !

. . . أنفعل . . ؟ وهل نقدر أن نفعل ؟

وأمسك كل من راشيل ومعين بوجه الآخر ، وكاد كل منهما أن يقول للآخر : هل نتزوج ؟ ولم يستطع أحدهما أن يجيب .

وفى جلسة ضمت « مهند » و « معين » وعـــددا محدودا ممن خرجوا معهم ، يبحثون عن المأمن ، ثم المأمن يصبح هو المدرسة ، وهو العمل ! وهو المشعل ! وهو المستقبل . .

فى هذه الجلسة قال مهند يسأل « معين »

ماذا فعلت براشيل يا معين ؟

وعجب معين من سؤال مهند ، فقال مهند : رأيتها تبكى . . تنتحب وتبكى فلما أقتربت منها لم ترنى !!

وظل معين يسمع ومهند يمضى فى كلماته :

أنت تعلم يا معين أن راشيل تحبك ، ولولا هذا ما تركت دمها يهدر ، لتصبح حياتنا مهددة بأصرار غلاظ القلوب ، ممن لا يعرفون الرحمة .

قال معين :

أعلم . . أعلم هذا يا مهند .

قال مهند :

تزوجها .. تزوجها الآن إذن يا معين .

وصاح معين :

أتزوج وأمي هناك سجينة ؟

أتزوج .. ؟

أفترضى يا مهند ؟

أفترضى أن أفوت على أمي ليلة زفاف تنتظرها كل أرمل ؟

أفترضى أن أتزوج ، وأختى طاهرة قد تقتل فى أية لحظة . . ؟

انى أحب راشيل يا مهند ، ولن أتزوج ـ ان تزوجت سواها . ولن أتزوج إلا وزغرودة أمي تجلجل فى حفل زفافى ، وترد عليها طاهرة . أختى طاهرة بزغرودة أعلى .

وانحنى معين يبكي وينتحب ، ومهند يبكى معه !

. . .

فى نفس اللحظة ، كانت مريم تعانى من الجب ، لكن ضـــوءا خافتا نفذ إليها ، وظنته الفجر يحييها ويطمئنها .

قالت مريم وهى تتنفس الصعداء :

. لابد أن النهار يعقب هذا الفجر . . لكن أى فجر ؟

لم أعد أرتبط بالزمان ، وبالمكان .. فالجب قد غير كل روابط انسان ، بزمان أو بمكان . . وصاحت مريم ، مثلما صاح معين : يارب .. !

. . .

ودهشت مريم ، وهى ترى باب الجب قد انفتح ، وأن يدا تمتد إليها ، وهى تهمس لها ، أن تعالى معى . . ! فلما سألت ، إلى أين . . سمعت الصوت الهامس يقول لها : إلى الحرية . . إلى النور . . إلى الحب والحياة يامريم .

قالت مريم : أى حب هذا الذى تدعوننى إليه ؟

قال الصوت الهامس : الحب المجرد ، يتسامى . . ويتسامى . . ويتسامى ، ليحلق فوق الناس ، وفوق الزمن يا مريم .

وعندما ترددت مريم ، سمعت صوتا تعرفه ، لكن طول اقامتها فى الجب ، أفقدها القدرة على التمييز بين الأصوات . فالسجان ، كملاك الرحمة والعدل ! والمحقق المخمور ، يتساوى بنداء الإنسان ، بالحرية ، والنور . . !

قال الصوت يستحثها لتلبى : لماذا تترددين يا مريم ؟ أخرجى من هذا الجب ، إلى الحرية . ! أخرجى وستجدين القدر أمامك ، يلبى دعوة المظلوم . ستعيشين لمعين ولطاهرة ، ولآلاف الآلاف من المشردين فى الأرض ، يبحثون عن المأوى . . يا مريم .

وهزت مريم رأسها تحاول أن تتذكر هذا الصوت ، لتعرف صوت من يكون . . !

أنا صوت الإنسان . .

أنا الضمير . . أنا نداء الأخلاق . . أنا الحلم الذى يراود آلاف الأرامل وآلاف الفتيات ، وآلاف الرجال والنساء والصبية . !

أنا . . .

قالت مريم ، وقد اكتست بحياء الأرمل ، وأهتزت من كلمات الحب . وأخذت تغلق مع ذلك ، قلبها . . عنها . . . ! ليظل استبعاد التقاليد والعرف

هو الجارى للانسان ، جبا أشد قوة من هـذا الجب ... فالانسان هو من يحبس نفسه فيه ! !

واستمر الصوت يهمس فى رقة : أخرجى يامريم ..

أخرجى إلى نور .. لن ينطفىء !

إلى حب .. لن ينتهى !

إلى سعادة تنجو من سيطرة العرف والتقاليد !

وصاحت مريم :

الشيخ مرزوق .. وهذا هو صوته !!

. . .

• في هذا المهرب يا صديقي ، نصنع أنفسنا .

• أفقات المهرب ؟

• نعم ، هل عندك لفظ آخر ؟

أبدا .. لكن اللفظ جديد .. وغريب !

• الجديد غريب .. غريب أبدا .

• ومتى يصبح مألوفا .. ؟

• بالاستعمال ، تعتاد الأذن عليه .

• أو بمزاحمة ماهو أغرب منه .

• يجوز .. كالمهجر يوم استعمل كان غريبا . أما اليوم ، فالغريب هو أن يستغرب !

. . .

وسكت معين ، وسكت مهند ، وبينهما دائما سر لا يستخفى ، عن كل منهما ، لكنه لم يستطع بعد أن يشق غطاءه ليبين .

لقد قضيا في هـذا المهرب سنوات ، مرت كلمح بصر ! وكانا مشغولين بمدينتنا ، وكان المهرب بالنسبة لها ، وللآلاف من أمثالها فرصـــة ، لالتقاط الأنفاس ، والاعداد لليوم الكبير ، بهدوء وعلى مهل .

لـكن مهنـــد كان يقاسي من الغربة والهجر . كان يجلس الساعات بعد الساعات تحت ضوء القمر ، وهو لا يرى غير وجهها الصبوح الفاتن .

وكان يكافح ويعمل، لتقصر مدة التحضير ليوم العودة . لكنه كان يخاف من هذا اليوم ، فهو يوم طال انتظار أهل المهرب له ، ومهند بدوره ، ينتظره وسيكون مع الناس فى فرحتهم، لكنه وحده ، سيختزن الخوف داخل قلبه .

أنه عاشق ، وعشيقته هناك تعانى آلام مدينتنا . ومدينتنا تعيش بين التوتر والقلق ، وانتظار أمل يتدلل ، حتى يتضاعف الشوق إليه ، وقد . لا يأتى ! !

ومعشوقته على شاكلته .. لابد من أن تكون على شاكلته !! فهو لا يرى أحدا سواها .. وهى دائماً أجمل وأرق وأفضل .

وشرد مهند ، يستعيد اللحظات التى مرت به .

إن حبه وليد لايزال ، فقـــد أضطر إلى الهرب ، خوفا من مضاعفات قد تحدث ، وتلبية لنداء لا يستطيع أن يعصاه .

لكن هذا الحب الذى ظهر فى حياته فجأة ، ترك فى قلبه أثرا ، أعمق من أن يذبل أو يجف وينسى ! فهو من الحب الذى ينمو .. فقط ينمو .. ينمو وهو يقظان ! ينمو وهو نائم ! ينمو ، وهو .. ينمو !!

أو تذكر يا مهند ، يوم تقابلتما ؟

لقد نظرت إليك فى حنان ، وأمسكت بيمينك تواسيك عما أصابك .

وظلت نظراتها فى عينيك ، وكفاها حول يمينك ، تتحسسان أثر الجريمة ، وتهونان عليك الأثر الشرير الغادر .

يومها قالت طاهرة ، أنها قد سمعت عن القصة من معين ، وأنها قد تأثرت بها إلى أقصى حد ، وكرهت مرتكبيها إلى أقصى حد ، وأستقر قرارها على أن تعاونك إلى أقصى حد أيضا ..

بعد ذلك قالت طاهرة تسألك : هل أستطيع ؟

وقلت لها يا مهند : لو كنت أعلم أنك ستشفقين على إلى هـــذا الحد ، لشوهت بنفسى كنى الأيمن ، وكنى الأيسر ، وساقى ، وكبدى ، ولسانى . . لأسمع منك هذه الكلمات الرقيقة .

ولم تستطع يا مهند أن تقاوم ما فى قلبك ، فصارحتها بأنك تحبها حبــا لم يعرفه العشاق !

حب قديم وجديد ! عظيم ومتواضع ! صادق وكذوب ! حب يجمع بين المتناقضات فى دنيـــانا . . . وكأنى آدم ، يا طاهرة الروح والقلب والعقل والضمـــير .

. . . وأسرعت طاهرة تقول لك :

لكنى لست بحواء يا آدم ! وليس فى نيتى أن أخرجك من الجنـــة !

ورأيتها كما لم تر فتاة من قبل .

رأيتها عصفورة من عصافير الجنة ، تطل على الدنيا ، مترفعة عن خطاياها !

رأيتها قطعه نور تتلألأ ، لتتضح الحقيقة أمام المخدوعين !

رأيتها رقة أنثى ، تتلمس الطريق ، نحو فارس يحميها !

نعم يا مهند ! طاهرة كانت كل ذلك !

بل كانت أعمق من ذلك وأخصب !

كانت هى الدنيا ، بعد تطهير الدنيا من الغش والخداع والمكروه !

كانت هى الماضي والحاضر . . بل والمستقبل !

فى عينيها شعاع ، يخترق الظلمات إلى النور .

وفى شعرها سواد الليل ، حين الليل يلف النجوى بغطاء شفاف هادىء .

أما رأسها ، فقد كانت أجمل من فينوس ، تستند على قاعدة رخام يلمع

تتأبى على ضفافن من ضل طريق الحق والعدل والحرية !

طاهرة يا مهند ، أجمل أغنية ، يترنم بها الشادى فى الصحراء والعاشق فى المحراب ، والمتعب الغارق ، في بحر من عرقه !

هى ليلى للمجنون ، وعزة لكثير ، وجولييت لروميو حين حديث يتردد بلغات الغرب !

طاهرة نداء اليائس يبحث عن أمله !

طاهرة دعوة مظلوم ، لايفقد أبدا ثقته فى الله وفى نفسه !

طاهرة دمعة مغترب ، وهو .. فى أرضه !

هذه هى طاهرة أخت معين ، وشريكة ملعبه ، وهما فى بطن جنينين !

* * *

وألتفت مهند ليجد « معين » يشاركه الوحدة .

قال معين : فيمن الفكر ؟

قال مهند : فيمن صارت روحا تتألق فى دنياى .

قال معين : وتحبك ؟

قال مهند : أكثر مما تحبك ...

قال معين يكمل : راشيل ؟

قال مهند : بفارق واحد ، هو أبنها منا ، ونحن منها .

قال معين : أفهذا اعتراض أم نقد يا مهند ؟

قال مهند : أستغفر الله .. أنا لا أنقد أو أعترض طريقك .

قال معين : تعلم كم تضحى راشيل

قال مهند : وأعلم ماذا يختزنونه لها من الكراهية والحقد .

قال معين : ومأساة أبيها . . هل تعرفها ؟

قال مهند : طبعا أعرفها . . يكفيها يا معـــين أنها ترفض فى الحب ، أن تساوم .

قال معين : هى أذن تقـوم بتضحيتين . . إلا أن كنت تحب واحـدة كراشيل ، فى نفس الموقف .

قال مهند : أحب من هى أقرب إلينا معا . . . أنت وأنا !

قال معين : من ؟ أثرت فضولى .

قال مهند : قلت أنها أقرب إلينا . . من أنفسنا . . أحيانا !

قال معين : من ؟ . . تحب أمى مريم . . مثلا ؟

قال مهند : أحب أمك ، لأنها أيضا أمى .

قال معين : من سواها أقرب إلينا ؟

قال مهند ، وقد شرد بعيدا ، وعيناه فى قدميه : أنها يا معين . طاهرة .

قال معين : . . أختى . . ؟

قال مهند : نعم هى أختك ، وأختى ، وأخت كل معذب على أرض مدينتنـا .

وفكر معين قليلا ، ثم أمسك بكتفى مهند ، وهزه فى أنفعال ، ثم ضمه إليه وقبل رأسه ، وقد أغرورقت عيناه بدموع . .

وبعد الدمع قال معـين : بالله عليك يا أخى وصديقى . . عندما تصبح أختى هى قسمتك فضعها فى عينيك ، فهى مثلى يتيمه !

قال مهند : فى عينى وقلبى يا معين .

ثم أغرورقت عينا مهند بدموع أخذت تندفق،وتتدفق ، وتتدفق لتختلط بدموع معين .

. . .

كان الصباح وليدا لا يزال ، وكانت أشعة الشمس تتحسس طريقها إلى الكون الواسع .

وكان معين ومهند ، يعانيان من قلق خائف ! ماذا تراه قد واجهها ؟ هل تكون قد وقعت فى الفخ ؟ انهم لن يتركوها ! سيعذبونها بكل ما يختزنون من غل وحقد ، وكراهية للجنس البشرى كله !

ولم يستطع معين أن يستقر فى مكان ، فأخذ يروح ويجىء ، ليستعين على القلق بالحركة . كان يبدأ السير على مهل ، فاذا تصور أمه ، تعانى من التعذيب الرهيب الشرير ، أسرع ، كأنما هو يهرب من هـذا التصور .. وقد تتحول الخطوات السريعة إلى العـدو خوفا على نفسه ، من ان يتصور امه مريم ، وهى تجلد بوحشية ! أو تعـانى من خلع أظافرها بقسوة وبلا انسانية ! وقد يعلقونها فى سقف حجرة تعذيب من شعرها لترشدهم عن .. الهـارب ! والهارب هو معين نفسه ! معين ابنها هو هذا الهارب ، و هو التهمة الخطيرة التى تدفع ثمنها !

وكان معين يشعر فجأة بالرغبة فى أن ينتحب !

وكان دمعه يفيض عن جفنيه وعن خـديه ، ليتدفق على ملابسه ، بينما يصيح صيحات هستيرية ، وهو يجز على أسنانه :

أماه .. سامحينى يا أماه !

لقد أصبحت أنا التهمة الوحيدة التى توجه إليك !

أنا من أنتظرته ليعوضك عنزوجك الشهيد ، وقد ذهب من دنيانا عطشانا

لا يجد قطرة ماء يبل بها ريقه ، وقد جف منه الريق ! أو تبل شفتيه ، وقد تشققتا من أزدرائه لخصوم لا يعرفون معنى القتال .. ! ويجيدون قتل شرفاء الناس ، غيلة وتحت طيات الظلام !

وشرد معين يستعيد ما كان يدور بينه و بين صديقه مهند ، وقد يشارك فى المناقشة آخرون .

كان معين يصر على أن القتـال والقتل كليهما ، شر بغيض ، ومنفر ، وهو الدليل على فشل الانسان ، فى الأرتفاع إلى المستوى البشرى ، فيتراجع إلى مرحلة الحيوان !

لكن « معين » كان يقول : إذا كان لا بد من اختيـار ، فالقتال أفضل .

- لأنه فى أقل القليل معلن .

- وما الفرق بين قتال معلن ، وقتل فى الظلام ؟

- كلاهما أبغض من أخيه .. ! لكن القتال ينطوى على القدرة والذكاء والحذق فى المناورة والخداع ، أما الثانى فهو لا يعدو قدرة لص على أن يتخفى عمن يسرق ، ليسرق ما يسرق .. ! يسرق محفظة رجل منفوخة .. ! أو يسرق حلية سيدة تعتز بحليتها ! أو يسرق حياة عدو ، لا يقوى عليه لو قاتله ، فيقتله فى السر .. أفضل !

- على كل كلاهما شر أسود !

- فاذا لم يكن بد من خيار ...

- أى خيار ؟ ! هل يمكن أن نؤثر الكذب على الغش ؟
- أو خيانة العهد على السرقة أو القتل أو التجسس؟

- كلها رذائل قبيحة ، وصفات لا يقبلها على نفسه غير وضيع منحل !

• ومع ذلك فالقتال أفضلها .

• أفضلها ؟ ! أو تنسب الفضل إليها ؟ ! وما ذنب الفضل ؟

• طيب .. ماذا عن القتال من أجل الحرية ؟

• فضيلة ...

• والذين يموتون فيه .؟

• شهداء ...

• وكذلك القتل ...

• لولا أن القتل ليس صراعا له قواعد تضبط حركته وأهدافه .

• لكن بعض القتل يتم ، عندما لا يجدى قتال .

• أغلب القتل يتم غيلة .

• وبعضه يتم فى مواجهة صريحة بين الخصمين ،

• • •

فجأة وصلت راشيل ...

.. لكنهما لم يرياها ! ! معين ومهند ، وكانا فى أشد القلق عليهـا ، لم يرياها عندما وصلت !! فقـد تاه كل منهما حتى عن نفسه ، فلم يعـد يرى أبعد من أنفه ! !

وعجبت راشيل ، وهى تراهما شاردين عنها .

لـكنها صاحت تقول لهما : ما جرى لـكما ؟ أنت يا معين ، ألا ترانى ؟ أنا راشيل يا معين ...

واضطرب معين ، فقد كان ظنه أن ذلك حلم ساخر !

لكنها أمسكت به ، وهزت أكتـــافه ، فتلعثم وأضطربت كلماته وهو يقول لها :

راشيل..؟! لقد ذهبت إليهم .. هناك ! لكنها ستعود .. راشيل ستعود. ما هذا ؟ أفعادت راشيل ؟ ! أنت .. أنت من ؟ هل أنت راشيل ؟

وتلفت معين ليرى ، وأمسك بذراعيها ، وهو يتحسس أطراف فتـاته ، ليتأكد أنها عادت .. بلحمها وشحمها عادت .. راشيل عادت ... يا مهنـد أفترى معى أن راشيل قد عادت ؟ هل هى حقيقة ، وقد عادت ؟ أم أنى في حلم من أحلام اليقظة ، أفرج به عن نفسى ؟ !

وأسرع مهند نحو راشيل ، وهو مرتبك اللفظ ، خائر النطق ، مضطرب الحركة .

وكما فعل معين ، فعل مهند .. أخذ يربت على كتفيها ، ويتأمل عينيها ، ليتحقق .. هل عادت راشيل ، أم أنها مجرد رؤيا ؟ !

وحاول مهند أن يقفز فوق الحواجز ليسألها عنها .. كيف هى ؟ ! هل هى بخير ؟ وهل تشتاق إليه ، كما يشتاق إليها ؟ هل تسأل عنه ؟

وعندما هزت راشيل رأسها إلى أسفل ، رقص معين طربا ، وهو لا يعرف ماذا يفعل .. هل يغنى قصائد حب وجوى ؟ هل ينظم هو شعرا يتفق وهذا الحب العظيم ؟ لقد كان مهند يشعر فى لحظة وصول راشيل بالأخبار ، أن كل الشعراء ، لن يستطيعوا التعبير عما فى قلبه .. ! كلهم قالوا شعرا ، من بيت يقول صاحبه فيه :

صرمت زنيبة حبل من لا يصرم ... إلى بيت يتساءل صاحبه فيه :

ومن البشير إليك يا ليلى ، بقيس فى الركاب ؟ !

نعم كلهم قالوا شعرا عبروا فيه عن أنفسهم ، لكنهم جميعا لم يعبروا عن حبه ، فى هذه اللحظة .

. لحظة حب ، تعدل أزمنة مرت وأزمنة فى طى الغيب !

. لحظة أمل ، تبتلع اليأس لتصبح كل دموع العالم ، ضحكات !

. لحظة نصر ، على ما فى النفس من الرواسب والمخاوف والاغلال !

. . .

وأخذت راشيل تحكى القصة من أولها .

كانت مكلفة بالذهاب إلى مريم ، لتنقذها مما تعانى منه ، فى سجن غليظ الجدران ، كالح .. يطفىء أى شعاع من نور ، ويقضى على أى أمـل فى الخروج من السجن المظلم ، إلى الأرض الفسيحة الواسعة .

وبرغم أن مدينتنا قد تحولت كلها ، إلى سجن كبير واسع ، ولم يعد فيها أحد ، خارج أسوار السجن الكبير ، إلا أن السجن داخـل السجن ! أقسى وأمر !! .

وذهبت راشيل لتـؤدى مهمتها هـذه ، وهى لا تعرف أن كانت ستنجو وتعود ، ام انها ستلقى هنالك حتفها ! !

وذكرت أباها ..

وأبوها يعنى لراشيل ، رجلا فقأوا عينيه أمامها .. بغير محاكمة ، أو تقدير ليومه .. ولماضيه !

أبوها يعنى لراشيل مداليات شجاعة ، وأوسمة تفوق وأنواط جدارة وأمتياز ..

. شجاعة ... ويفقأون له عينيه !

. جدارة ... ويطردونه إلى الخلاء الواسع ككلب مصروع !

. تفوق ... حتى فى نوع العذاب الذى يستعملونه معه ! !

. أمتياز !! . أمتياز حتى فى تأديبه !! وتأديبه بأطفاء نور عينيه ! !

وتذكر راشيل ، كيف أخذت كل ذلك لتدفنه فى قمة جبلى ، تحت صخرة ، لايعرفها أحد سواها .

راشيل تذكر هذا كله ، وهى فى الطريق ، لتنقذ مريم .

أن انقاذ المظلوم عمل رائع ، لأنه يقلل من استبداد الظالم ! !

أما أن تكون المظلومة ، هى أم معين ، فذلك شىء يحبب لراشيل التضحية ، حتى الموت من اجل معين .

وكانت راشيل تذكر نصيحة معين لها ، بأن تحتاط لكل شىء ، وإلا تستهتر بشىء ، أو تستهين .

أننا نريدك أن تعودى لنا سالمة يا راشيل !

كانت هذه كلمات معين لها ، وهى الكلمات التى رافقتها طوال المغامرة التى قامت بهـا .

لكن هذه الكلمات ، لم تكن كل الكلمات التى سمعتها من معين ، فقد أسر فى أذنها بالكلمة الوحيدة التى تتمناها كل أنثى .

أحبك .. عودى سالمة من أجلى !

هكذا كانت راشيل ، تستعين على الرحلة بكلمات ، لاتسمع اية أنثى كلمات أحلى منها .

. . .

وتقفز راشيل من السطر الأول فى حكايتها ، إلى السطر الأخير ، لتقول لمعين : وها أنذا قد عدت إليك .. فهيا بنا نتبادل عبارات الحب . بل هيا بنا نتحاب . أنا أحبك ، وأنت تحبنى ..

وتغمض راشيل عينيها ، حتى تمتص رحيق هوى تهواه ...!!

وبعد قليل تفتح عينيها ، لتقرأ فى عينى معين تساؤلات عما صرفها عن اتمام القصة وتذكر راشيل انها سألت « معين » مرة عن فترات صمته ولماذا تطول ، فقال لها أنه يتعبد .. ! أن صمت العاشق يا راشيل دعاء .. ودعاء العاشق وفاء .. ووفاء العاشق ولاء .. وولاء العاشق ، لا هو استحياء .. ولا استعلاء .. ولا استغناء !

وعادت راشيل ، بعد قفزتها الطويلة ، تتمم بقية حكايتها ، وكيف تحايلت لتدخل مدينتنا ، فلما دخلت اتصلت بمن تطمئن إليه من الناس . وكانت المفاجأة انها عرفت أن مريم ليست فى السجن ، فقد هربت من السجن إلى الحرية .

ولم يشعر معين إلا وهو يسأل فى انفعال :

لكن من ذا هربها ؟ . هل هربت وحدها ؟ .. هل دبرت هى بنفسها ولنفسها مهربها؟ وألم تخف من أن تفشل خطتها ، فتكون نهايتها ؟ ! مسكينة يا أمى ، وأنا مسكين مثلك .. !

وتدخل مهند وعدد من الحاضرين ، ليدور بين الجمع ، حوار متداخل ، لا يعرف أحد منه ، من أعان هذا الرأى . أو من قدم هذه المعلومات .. أو من استنتج هذا الاستنتاج .

كان الحوار عن مريم ، ومن هربها ...

. هربت مريم من السجن .. !

• لكن كيف استطاعت .. ؟

• ببسالتها .

• لكنى استبعد أن تهرب أمى .

• .. لماذا ؟

• خوفا على الأبن الهارب .

• وعلى الأبنة .

• لابد إذن أن هناك من هربها .

• أشخاص أو مجموعة ؟

• وماذا يهم لو كان هذا أو ذاك ؟

• نعرف أن هنالك من هم معنا .

• اسمع .. عندما يستشرى الظلم ، تقوى شوكة من يعمل لضرب الظالم.

• أو من يعمل لظلم الظلم !

• كذلك عندما يشتد البطش ، تشتد قبضة من يبطش ...

• ... بالبطش !!

• أو بمن يبطش .

• ناموس الحياة إذن ، هو أن يسرى بين الناس نظام عادل .

• فاذا اختل الناموس ...

• صححه الناس . .

• الناس مساكين يا صحبى .. هم القـوة ، وهم فى نفس الوقت ضحايا القـوة .

. والعاصم إن الدنيا .. قلب !

. وضحايا اليوم ، قد يصبحون غدا ، جلادى ضحايا آخرين .

. وينسون ما كانوا فيه !!

. وقد يعوضون الحرمان ، بنفس البطش وبالجبروت ...

. وبإذلال الناس ، كما ذلوا !!

واستأنفت راشيل روايتها عن مريم ، وكيف استطاع عدد من أهل مدينتنا أن يحرروها من سجن كئيب مظلم .

وكان التدبير محكما وبسيطا ، لم تستعمل فيه القـوة ، ولم يلجأ أحـد فيه لعنف ، ولم تتعرض مريم ، لما قد يزعجها .

وسأل معين :

. أفكانت أمى على علم سابق ؟

قالت راشيل :

. دبروا كل شيء ببساطة وهدوء . وكانوا يعلمون ان حراس الليل ، لا يستطيعون ان يظلوا طوال لياليهم مفتوحى الأعين . وفى جو الثلج والبرد ، والخلاء .. يغمضون عيونهم مع الفجر ، لغفوة .

وانفعلت راشيل ، وانكفأت على نفسها ، تبلل دمعا سال من عينيها ، على رغم منها . ! وسمعها هذا الجمع تقول كلاما متقطعا لم يفهمه احد إلا معين .

. ومع ذلك ، فان احدا لم يفكر . فى ان يفقأ عين احد منهم ! . اغفوا او لم يغفوا فذلك شيء تافه ! تافه ! لا يحتاج لأن تفقأ عين فيه ! ما احط ان تطبق عقوبة تحـويل المبصر إلى اعمى ! واحط من العقوبة الا تعم على كل الناس ، وإنما تتم وفقا لمزاج الجلاد . وهو دائماً شرير غادر !

واخذت راشيل تنتحب ، ومعين يهدؤها ، ويشاركها الدمع على والدها المسكين وقد تاه عن الدنيا .. اين ؟ لا من يدرى او يتقصى !

وحكت راشيل عن مريم انها فوجئت بأن كل شيء جاهز ومعد ، وليس عليها إلا ان تلبي نداء الحرية أو تدرى يا معين ماذا فعلت؟ لقد رفضت خوفا عليك من المكروه . لكن صوتا عزيزا علينا وعلينا ، اقنعها بأن تخرج من السجن الكالح .

وسأل معين ، وسأل جميع الحاضرين : من .. صوت من ؟

قالت راشيل في هدوء : ستعجبون . نعم ستعجبون .

وانتظرت راشيل قليلا ، ثم قالت :

- لقد كان الصوت هو صوت الشيخ مرزوق ..

وشهق جميع من حضروا وسمعوا ، وهم يتبادلون النظرات ، كل ينظر إلى صحبه ، او ينظر إليه ، واحد من صحبه !!

. . .

لكن اين ذهبوا بمريم ؟

وهل عرفت طاهرة بقصة هربها من السجن ؟

وهل اتخذت السلطات اجراءاتها ضد طاهرة ؟

وصاح معين يسأل راشيل :

- هل اختى طاهرة بخير ؟

قالت راشيل :

- لا بد من ان تكون بخير .

قال مهند :

• كيف .. ؟ كيف عرفت انها بخير ؟ الم تقابليها .. ؟

قالت راشيل :

• اين .. ؟ اين اقابلها .

قال مهند :

• حيث تكون . كان الواجب ان تقابليها ، ولو فى بطن حـــوت ! . أو فى فوهة بركان ! . أو فى دوامة تدور بالماء فى محيط هادر ! .

قالت راشيل :

• أو تعرف مدى الخطر ..

قال مهند مفزوعا :

• كل خطر يهون من اجل طاهرة .

قالت راشيل :

• فان يكن الخطر على طاهرة .. ؟

قال مهند :

• لا .. لا .. طاهرة بخير .. يجب ان تكون طاهرة بخير .

وأجهش مهند يبكى من فرط الحزن . وأمسك معين بمهند ، ليشاركه دمعه ، وليهدىء من ثائرته .

وتوتر الجو ، واصبحت كل الحركات عصبية .

ومضى مهند هائما على وجهه في الخلاء الواسع ، وهـــو يصيح يناديها : طاهرة .. يا طاهرة . ! اين انت ايتها الملاك ؟ الا تزالين تعيشين تحت الثلج ؟

ومع من تتحدثين بالهمس و عندما تسود مدينتنا ، ظلمات الليل الحالك ؟ إنى أعلم أن أولاد عمومتك معك ، لكن صلتك بمعين تسكنى لدخولك سجنا لا يرحم ! كما حدث لمريم أمك !

عندها الجبناء ، حتى تنهار ، وتدل عليه ! ولم تك مريم تعرف عن ولدها ، إلا أنه فر بجلده ، من وحوش لا تتفاهم إلا بالنار ، وبالبارود ، وبمحاكمات جاهزة للإستعمال حسب الحالة ! أين تكونين الآن يا طاهرة ؟ ردى على يا أملى ، أين تكونين ؟ إن الحياة بدونك يا طاهرة فراغ قاتل ! والدنيـــا لولاك خراب ! وأنت يا طاهرة بريق أمل ، إذا خبا أظلمت الدنيا .

قال معين وهو يهدىء من ثائرة صديقه العاشق : دعنا نستعرض ما نحن فيه يا مهند . أنا نواجه ظلاما كثيفا لا عهد لنا به أو بمثيله . ومدينتنا يا مهند معنا ، تقاسى هذا الظلام مع الظلم والجبروت . وها نحن أولاء نتخبط فى دياجير ظلام دامس . . فهيا نمضى نحو مفتاح النور ، لنقضى على خرافات كثيرة تستشرى .

قال مهند وهو لا يملك إلا ان يصيح من الضيق : أولا نعرف أين تــكونين يا طاهرة ! .

قال معين : وكيف نراها فى الظلام الحالك ؟

قال مهند : هى قادرة على أن تضىء لنا الدنيا .

قال معين : هذا قولك ، وقولى ، فأنت عاشق طاهرة ، وأنا أخوها ، لـكن ما ذنب الدنيا ؟ هيا نسعى لمفتاح النور ، لنقضى على خفافيش الظلام .

وصاح معين يقول لمهند : احتفظ بهدوئك يا صديق . وهيا بنـــا نوقد المصابيح ، من أجل مدينتنا .

قال مهند : ها أنت ذا . . مصباح أضاء لأهله طريق الأمل المرجو .

قال معين : وأنت الآخر مصباح .

قال مهند : وطاهرة مصباح ... بل إن أمنا مريم هى أيضا ...

قال معين : مصباح المصابيح جميعا يا مهند .

. . .

وبدأ أهل مدينتنا فى مريم يضعون خططهم .

وكان الهدف أمامهم واضحا وبسيطا .

قالوا : إنا مغلوبون ، ونحن الكثرة ! .

وقالوا : والذين غلبونا ، ليسوا أفضل منا !

وقالوا : معهم أسلحة غدارة !

وقالوا : والسلاح مهرب .. فى ظلمات الليل !

وقالوا : الليل إذن هو ما يحتاج لحرب العودة .

وقالوا : لا .. سيظلم الليل ، حتى ليالى القمر الساطع !

وقالوا : لقد غلبونا بالقنبلة وبالمدفع .

وقالوا : وبالتخويف من مصير غامض .

وقالوا : وكيف خلاص المدينة منهم .. ؟

وقالوا : أبسلاح أكثر ؟

وقالوا : أم بالتضحيات الموصولة ، وبالصبر على المحنة .

وقالوا : إن محاربة الظلمة .. بالنور .

وقالوا : وبالمصابيح تملأ طرقات مدينتنا .

. . .

ووضعوا الخطة ..

وأصبح على كل منهم أن يتحول إلى مصباح ، يضيء ما حوله .

وبدأوا يتعلمون ويتدربون ويدرسون ، استعدادا لليـــوم العظيم . وبدأ المهرب يتحول إلى مدرسة ، تعطى العلم والمعرفة لكل أبناء مدينتنا .

وعنـدما أثار بعض نزلاء المهـرب ، إن هـذا طريق قد يطول ، رد عليهم أصحاب التجربة ممن عاشوا المحنة إن ذلك لا يهم ، فالأيام تمر ، وأعمار الناس تمر ولا وسيلة لتحقيق الآمال ، إلا بالصبر على المكروه ، وتعلم حظ أكبر مما توفر لغزاة مدينتنا .

وبدأت دنيا جديدة ، تغزو عقول أهل المهرب ، ليتحول المهرب إلى معبد ، الصلوات فيه علوم ومعارف . والقربى إلى الله ، عمل دؤب لا يمل .

. . .

وبدأت أفواج الهاربين من النوم تحت الثلج ، تتوافد على المهرب .

وفوجيء الناس ذات صباح بفوج جديد قادم .

ولم يكن هذا المنظر غريبا على أهل المهرب ، إنما الغريب فيه ، إنه كان يضم مجموعة طال انتظارها .

مريم الشماء .. وابنتها طاهرة .

وفرح معين وفرح مهند ، حتى اختنقت حنجرة كل منهما ، من عمق التأثر ومفاجأة اللقاء .

مهند كاد يطير عندما وجد طاهرة أمامه ، بوجهها الملائكى الجميل .

ومعين كاد يطير عندما وجد أمه تقبله من أعلا رأسه إلى أخمص قدميه .

وعندما خفت حدة المشاعر قال معين :

. إنى جائع يا أمى !

وصاحت مريم وهى تربت على وجنتيه :

. أعد لك كبدى . . يافلذة كبدى .

قال معين :

. ومهند . . ؟

قالت مريم :

. ابنى ، له فى قلبى نفس مكانك .

قال معين :

. وطاهرة . . أفيكفى كبدك ثلاثتنا ؟

قالت مريم :

. إذا لم يكف ، فحياتى رهن اشارة أولادى .

وبكت مريم ، وهى تضمهم جميعاً إلى حضنها ، وفى خاطرها ، صورة الشهيد البطل ، الذى ذهب ، وهو . . . عطشان !

... وفى خلوتها ، كانت مريم تتأمل . تشرد عن الدنيا .. تحلم ! وما كانت مريم تستطيع أن تتفادى الشيخ مرزوق ، فقد قال لها كلمات لا تنسى .

أخرجى يا مريم إلى الحرية والحب ..

أى حب كان يقصده الشيخ مرزوق ؟

وماذا دفعه إلى مغامرة ، كان يمكن أن تودى به ، فتوجه إليه تهم شتى ، ثم تكون نهايته ، على أيديهم ؟ !

وأنتقلت مريم إلى هذه النهاية .. ماذا يمكن أن تكون ؟

النهاية يا مريم ليست ضريبة فادحة ، يدفعها من تحوم الشبهات حواليه ! ! أن أفدح من النهاية ، ما يسبقها !

التعذيب بوسائل لا تخطر على خيال بشر !

وعندما يتفنن الشيطان فى طرق التعذيب ، فأن عذاب التعذيب يصبح أفدح ثمن ، يدفعه المنحوس أو المشبوه كما يصفونه !! المشبوه ! أو المشتبه فيــــه ! أو الشخص ، حين يصبح موضع الظن وهدفه .. !

يسمونه المارق ، من يعصى الأمر !

ويقولون عنه المتمرد ، من لا تعجبه لغة السلطات !

وهو فى كل الأحوال ، شخص « فلت عياره » ، يسعى لخراب فى عشه ، ولا يقدر عاقبة « الفتنة » ... !

. الفتنـة ... ؟

• التهمة التى شاعت على ألسنة القوم هناك .

• ولماذا الفتنة ؟

• لأن الأديان . . . حتى الأديان ، تشجبها .

• وماذا يهم الشرير من الأديان ؟ أفشره الذى ينفسه فى الناس ، من الأديان ؟ أفكفره بحقيقة الأديان ، من الأديان . . ؟ !

• يكفيه هو أن يشيع اللغط خارج مدينتنا ، ليدفع أصحاب المصالح ، ثمن مصالحهم ! !

على أن مريم ، لم تستطع أن تبقى طويلا : تتمشى عند النهاية ، أو ما قبل النهاية . . . أليست البداية أحلى ؟ !

والبداية كانت : أخرجى يا مريم ، إلى الحرية والحب . . ؟

الصوت قد كان صوت الشيخ مرزوق . . . وكان رقيقا وكان عذبا . كان يرتعش من حمى ألمت به . . حتى تجعل الأجساد كلهب النار ، ولا بد أنها تجعل القلوب كالجمرات . . . جمرات !

مم ؟ من العشق ! ! من الحب . . من الحرمان ! !

معنى هـــذا يا مريم . . ! لا . . لا يا مريم . . ! أفتنسى من أنت ؟ ! وما أنت عليه ؟ !

لكن لم لا . . ؟ ! أمريم أكثر من أنثى ؟ !

لكن مريم أرمل ، أفيعرف الناس ، من الأرمل ؟ ! وكيف تكون حياة الأرمل ؟

الأرمل إنسانه ، تنقصها . . الإنسانه !!

الإنسانه فيها لم تتكامل ! هى نصف واحد ، على عكس نساء الأرض . .

قاطبة ! وليتهم يتركون لها اختيار النصف الذى تتمناه ، أو الذى تحلم به ! لكن النصف الذى ينقصها ، هى أنها لاتعرف ماذا ينقصها !

الأرمل إنسانة ، يجب أن تكون بلا قلب ! هى تأكل وتشرب وتلبس وتسافر وتهاجر وتهرب .. لكن ليس لها أن تحب !

. فإن أحبت ؟

. تبلع الحب ، وتشرب بعده كوبا من ماء .. بارد !

. ولماذا الحب عليها حرام ؟

. يجب أن يموت مع من مات !

. أليست هذه قسوة .. ؟

. أبشع أنواع القسوة .. لكن البديل عن القسوة متاعب لا تحصى .

. ثم أن مريم أرملة شهيد يجب أن تصون ذكراه .

. كما تصون كل أرمل ذكرى من ذهب بعيدا عنها .

. يتضاعف الثمن مع أرملة شهيد ، دفع حياته لبلاده .

. ولماذا يتضاعف ؟

. الشهيد قدوة .. وأرملته .. يجب أن تكون على شاكلته .. قدوة !!

. فإذا لم يكن فى طاقتها أن تصبر ؟

. يجب أن يكون هذا فى طاقتها .

. أن تأكل بحساب .. هذا جائز .. أن تشرب بحساب .. هذا أيضا جائز . وكذلك يمكن أن نجد جوازات مختلفة . أما أن تحب ، فهنا وقفة.

. . .

وثارت مريم على الدنيا وعلى الناس ، وهى تستعيد كلمة الحب ، وأنه عليها حرام .. !

وقبل أن تصل ثورتها إلى الغاية دخلت عليها راشيل ، وهى تبتسم لها .

وهبت مريم واقفه ، لتأخذ راشيل فى حضنها ، وتقبلها وتقبلها ، حتى تكاد القبلات أن تخنقها .

لم تكن مريم ترتاح لراشيل ، فلما عرفت ما فعلته وتفعله لمعين ، أحبتها .

ثم أن الحرمان فى مريم ، دفع روح الحب إلى عينيها ، وإلى شفتيها ، وإلى كل خلجة فى قلبها ، فكان عليها أن تعوض ما فيها هى من النقص ، فيما تعطيه لراشيل ، حبيبة أبنها ، وأمله وهواه .

قالت راشيل :

. ألا تريدين منى شيئا قبل أن أذهب ؟

وأسرعت مريم تسألها :

. تذهبين ؟ .. إلى أين ؟

قالت راشيل :

. إلى هناك .. !

وأندفعت مريم تقول :

. وتأمنين على نفسك .. ؟

وأجابت راشيل فى تسليم :

. ربنا موجود .. قولى لى أولا ، بم أناديك ؟

قالت مريم :

. بما تشعرين به نحوى . بما يريحك يا بنتى .

قالت راشيل :

• إذن ، فلتكونى أماه .. يا أماه .

وردت مريم عليها بقبلات كثيرة لا تحصى ، وكانت راشيل تبادلها القبلات ، بقبلات أكثر .

وعادت مريم تسألها :

• أريد ان اطمئن عليك . أفأخذت حذرك ؟

قالت راشيل :

• عم الشيخ مرزوق هو الذى يتولى هذا عنى ، وعنا كلنا .

. . .

الشيخ مرزوق .. وكلمات جميلة رائعة ..

اخرجى يا مريم إلى الحب وإلى الحريه . . .

ودارت فى وجدان مريم ، انفعالات كثيرة ، وراشيل تنطق اسم الشيخ مرزوق . وتسلل إلى ملاك ، كانت قد اوصدت بابها دونه ، لكنه يعود اليوم ، فى شكل آخر .

صوت هادى فيه حنان ؛

ورعشة تتذبذب ، بين الارتفاع ، لتصبح حمى ، والاندفاع لتصبح تيارا ساخنا فى قلب محيط !!

وهمسة ترجوها ان تتحرر . !

كانت مريم واحدة من نزلاء السجن . والسجناء هم احرص الناس على الحرية .

لكن لماذا يصبح الشيخ مرزوق اكثر حرصا منى على حريتى ؟

.. لابد أنه .. لا . لا .. يا مريم . لا توحى لنفسك بأيحاءات تفسد عليك حياتك .. أذكرى دائماً أنك أرمل .

ثم أنه ... هذا الشيخ مرزوق .. هل يحب واحدة لم يرها ؟ أنه كفيف لم يرك ليسبيه جمالك ، فماذا يحب فيك يا مريم ؟

العذاب الذى تعيشين فيه ؟

هل يحب دموعك ؟ .. وهـــل يراها ؟ أم أن للصوت المحزون طعما يـذاق ؟

ومدت راشيل يدها إلى مريم ، وهى تودعها ...

ولم تشعر مريم إلا انها تقول لراشيل : سلمى على الشيخ مرزوق .سلمى كثيرا .. كثيرا يا راشيل .

وشردت راشيل عن نفسها ، وهى فى الطريق إلى مدينتنا .

. ... مدينتنا ؟

. نعم ، هى بالفعل ، مدينتنا .

. مدينة من ؟

. مدينة أصحابها .

. ولست منهم .

. بل إنى منهم . فقد ولدت على أرضها ، وعشت من خيرها .

. ... ثم . ثم ماذا ؟

. جاء غراب البين ، ينعق بدمار الأرض . ! وخراب نفوس الناس !

* * *

وعندما وصلت راشيل ، اتجهت إلى الشيخ مرزوق .

وكانت راشيل تحمل إليه رسالة .

... ولم يرد الشيخ مرزوق كأنما الكلام ليس إليه !

وعادت راشيل تقول الشيخ فى اصرار : « إن أمى مريم طلبت منى أن أحمل السلام إليك ، يا سيدنا » .

قال الشيخ :

• ومن أمك مريم ؟

قالت راشيل :

• أمى وأم معين . . ألا تعرفها ؟ أنك أنت الذى . . .

وتدخل الشيخ بلباقته المعروفة ليقول :

• آه . . . أذكر الآن . خرجت مع آخر فوج لتذهب إلى أبنها . . حيث هو .

قالت راشيل :

• أفلم تكن سجينة ؟

قال الشيخ :

• طبعا كانت سجينة . .

قالت راشيل :

• وبأية تهمة ؟

قال الشيخ :

• أذكر أن التهمة كانت تهريب معين .

قالت راشيل :

. وكيف خرجت ؟

قال الشيخ :

. كما يخرج كل سجين .

قالت راشيل :

. ألم تكن أنت صاحب الفضل عليها ؟

قال الشيخ .

. أنا . ؟ أستغفر الله العظيم ! أى فضل يا بنى ؟

قالت راشيل وهى تربت على كتفه :

. هكذا أنت ياعم الشيخ . . تذكر فضل سواك وتنسى نفسك .

. . .

كانت راشيل تقوم بأهم ما تعمل من أجله ، هى وأهل للهرب . وكان عليها أن تتكتم سر الخطة ، فلا يعرفها أحد ، فتفسد قبل أن تتم .

ولم تكن الشقراء قد حسبت حسبتها ، لتعرف أن سنوات المهرب ، قدمرت سريعة كالبرق .

كانت قد تركت بعض ملابسها عند صديقة ، تسكن كوخا فى الطريق إلى مدينتنا . وكان الكوخ آمنا لبعده عن الأضواء ، ولطبيعة المكان الذى أقيم فيه ، فقد كان مختفيا عن عيون الناس ، منزويا فى طرف سهل . مغمور !

وشعرت راشيل بأنها ستحتاج إلى الكوخ ، وإلى أصحاب الكوخ . . . فذهبت لتراهم . وكان أول ما رأته ، أن رأت نفسها فيهم ! لم تكن تعد السنوات ، لتعرف كم مضى من عمرها ، وماذا فات . . فما أن رأت صديقتها

القديمة ، حتى صاحت تقول لها : كبرت . . كبرت حتى أنى لا أصدق عينى . زدت حلاوة أيضا .

وضحكت صديقتها وهى تقول لها : وأنت كذلك يا راشيل . أيمر العمر سريعا هكذا . الكنك تزدادين نضارة يا شقراء .

قالت صديقتها : أن الواحدة منا ، تحتاج إلى رؤية صديقتها بين الحين والحين ، لتقيس بها ، نفسها !

قالت راشيل : والمرأة . . ؟

قالت صديقتها : المرأة تفقد حساسيتها بعـــد أن تعتاد الواحدة عليها . تصبح جزءا منها . كملابسها .

وسألت راشيل صديقتها عن صندوق ملابسها وحليها وقد تركته لديهامنذ سنوات ، حتى لا يضيع مع ما ضاع ، فأخذتها صديقتها إليه .

وقضيتا ـ راشيل وصديقتها ـ وقتا طويلا تمزحان فيه و تضحكان ، وكل منهما تقيس ملابسها القديمة ، لتجد أن حجمها قد تغير تماما عما كانت عليه!

إنى لا أصدق إنى قد صرت واحدة أخرى .

لكن صديقتها أكدت لها أنها تغيرت إلى أحلى !!

وبدأت راشيل تقوم بمهمتها فى تكتم وسرية .

وكان عليها أن تذهب فى رحلات متقطعة ، إلى المهرب ، لتقدم للأهل هناك فكرة عن كل تطور .

وعندما ذهبت أول مرة ، تجمع حولها معين ومهند ، وعدد من الأهل ممن يتوقون ليوم العودة .

قالت راشيل : نحن على وشك أن نعد كل شيء .

قال معين : أين يا راشيل ؟

قالت راشيل : فى سفح جبل ، قريب من كوخ تعرفه ، أو تذكر أعز صديقاتى ؟

وتذكر معين صديقة راشيل ، ومكان أقامتها مع أهلها ، وكيف كان دائما يقول لراشيل ولأصحابه من هنا يجب أن تكون بدايتنا .

قالت راشيل : وها نحن نحقق حلمك .

وأخذ مهند يناقش كل شيء ، ويدرس كل التفصيلات ، ثم نظر لمعين ولأصدقاء المهرب ، وهو يبتسم أبتسامة راضية مطمئنة .

قال معين : لا تنسوا .. لا تنسى يا راشيل . أننا نحارب جماعة شاردة عن كل القيم وعن كل معانى الشرف والمروءة والإنسانية . كل هؤلاء يسقطون ، لو أنتصرنا على الظلام الحالك . أن الشر لا يعيش أبداً فى النور ، ويوم يعم النور وتسطع المصابيح فى كل مكان ، فان الأشرار يرحلون ، ليجدوا فى البحث عن مكان مظلم .

قال مهند : هذا هو الحلم الذى نحلم به . سنطفىء الظلام ..

قال معين : وهل ينطفىء الظلام ؟

قال مهند : نعم .. يوم يعم النور ، تنطفىء الظلمة !

قال معين : خفت من أن تصبح الظلمة نورا .. ثم ينطفىء النور لتعود الظلمة !

قال مهند . أن أنطفاء الظلمة يؤكد أنها انحسرت .. وبلا عودة !

قال معين : أذن لنطفىء الظلمة والظلمات .. والظلم .

قال مهند : ولن نجد شيئا يطفئها .. إلا النور .. يسطع .. !

واتضح لأهل المهرب ، كيف كان الشيخ مرزوق بطلا فى صمته . أخذ يؤدى دور التغطية والتمويه ، فى أبسط صورة . ولكم تدخل لتحرير المسجونين فى سجون تحت الأرض ، كالجب الذى وضعوا فيه مريم ..

وهو كفيف ، يقوم بأعمال ، أهم كثيرا مما يقوم به مبصر !

وهو شريد ينام تحت الثلج ، ليحول هذا الثلج إلى لهب ، يذيب الثلج ، ويذيب مع الثلج هموم المهمومين .

والشيخ مرزوق يستثمر عاهته ، فى خدمة ما يعمل له أهل مدينتنا .

وأهل مدينتنا لا يريدون الشر لأحد ، حتى لمن أساء إليهم ! لكنهم لا يريدون كذلك ، أن يكونوا لعبة فى يد عابث ، أو مستهتر !

• يريدون أن يعيشوا فى النور .

• ولكى يحققوا لأنفسهم النور ، فعليهم أن يحاربوا ظلمات ، يتخفى فيها البشر .

• هم أعداء الليل المظلم .

• ولا ذنب لليل .. فالليل لطيف رائع .

• ثم هو جزء من زمن متكامل ، ومن ذا لا يحب الليل ؟ فإنه لا يحب النهار كذلك .

• ومن يعادى الليل ، العداء المطلق ، فهو يعادى الزمن ، وهو نصف الوجود كله .

• الذنب إذن ذنب الناس ، ممن يحولون الليل إلى جب !

• يرتكبون حماقاتهم فى ظلمات الليل .

• .. ويقيمون أفراحهم كذلك .. تحت أضواء الليل !

وتمضى راشيل تتحدث عن المكان وكيف جهز ، ليستوعب العائدين إلى أرض مدينتنا ، فى أكواخ تقام فى سهل مبسوط من الأرض الخصبة .

وسيكون على أهل مدينتنا أن يحصلوا على حاجاتهم بعرق جباههم وكد أياديهم ، بعد أن تعلموا من هذا المهرب أشياء كثيرة كانت خافية عنهم .

• • •

وفى يوم من أيام ربيع أخضر مورق ، تفوح منه رائحة الورد ، مخلوطة برائحة النعناع ، ورائحة الحلبة ، كان أهل مدينتنا قد عادوا من مهربهم ، إلى واد فى سفح جبل ، فيه هدوء وخصوبة ، وفيه كذلك وضوح رائع .

وعندما ذاع الخبر ، أصيب من كانوا فى المخيمات نياما تحت الثلج ، بفرح غامر ، فقد عاد الأحباب من المهرب . أما غزاة الأرض من الأجلاف ، فقد أفقدهم الخبر توازنهم ، وأعدوا السلاح لطرد المعتدين عليهم !

ولم يضيع العائدون الوقت فى مناقشات مكررة ومعادة ، ولكنهم ذهبوا يواجهونهم فى ضوء الشمس ، لا فى الظلام الحالك .

وتبين الغزاة أن سلاحهم مغلول ، فقد كانت الذخيرة قد فسدت !

وبدأت الحياة تدب فى أرض مدينتنا .

ومع دبيب الحياة ، ألتقى الأهل والأصهار والصحبة ، وكانوا قد تفرقوا على أكثر من مكان ، وفى أكثر من مهرب .

وكانت مريم تسير رافعة الرأس ، شامخة الهامة ، وحولها معين وطاهرة ، ومهند وراشيل .

وفى مدخل المخيم ، كان الشيخ مرزوق فى انتظار الموكب .

.. كان بدوره رافعا الرأس ، مبتسما فى هدوء ، يصافح من يتقدم إليه ويمد يمينه نحوه .

وعندما وصلت مريم ، بدت على الشيخ مرزوق فرحة ، لم تبد من قبل عليه . وفى نفس اللحظة كانت مريم كفتاة عذراء ، تملكها الحياء وخجل الأنثى ، تخفضت عينيها ، حتى لا تفضحها عيناها .

ووقف الجميع يسلم على الشيخ مرزوق .

معين أخذه فى أحضانه ، يقبله ويذكر أفضاله .

وكذلك فعل مهند .. ولم تتردد طاهرة من الأنحناء على يد الشيخ تقبلها ، لولا أنه سحبها وهو يردد ما يتردد فى هذه الحالات :

أستغفر الله العظيم يا بنتى .

وكما فعلت طاهرة فعلت راشيل ، وكما فعل الشيخ مع طاهرة ، فعل مع راشيل .

وجاء الدور على مريم ...

وتقدمت مريم ، وفى أذنيها همس لذيذ ورائع لا تنساه ولا تنسى صوته : أخرجى يا مريم إلى الحب والحرية ... ألم يكن هذا همسه ؟ ألم يكن هذا صوته ؟ وكادت مريم وهى تضع يدها فى يد الشيخ مرزوق ، أن تصاب بالأغماء .

وأحتفظ الشيخ مرزوق بيد مريم فى يده ، وضغط عليها فى رقة وحنان. وفى رغبة !

- وكيف تكون الرغبة ؟
- ذلك سر ، لا يعرفه إلا العشاق !
- أو المحرومون !
- هل هنالك شفرة ، يتعلمها العاشق ؟ والمعشوق ؟
- الحب لا يتعلم !
- وهل هو عاشق ؟ الشيخ مرزوق ؟
- وهل يستطيع إلا أن يعشق ؟ !
- وشعر الغزاة ، بأن الغزو غزاهم !
- أعودة من فى المهرب ، غزو ؟
- أقسى أنواع الغزو !
- أغزو حين أصحاب المدينة ، يعودون لمدينتهم ؟
- أليست الأرض لمن يفلحها ... ألم يقل هذا بعض منكم ؟
- ... لكنها ليست .. لمن يغتصبها .
- أيكون أغتصابا ، ما يترتب على وضع مشروع ؟
- وهل الغزو ، وضع مشروع ؟
- طالما أن أحداً لا يطرده ، أو يقفه !!
- ليس الطرد دائما بأستعمال القوة .
- ... نعود نكرر كلمات الحوار والجدل والاقناع ، ليقتنع الغزو .. فيرحل !

• ولا هذا أيضا .

• إذن كيف يتم تغيير الأمر الواقع ،

• بتغيير الظروف التى سمحت به .

• ... بعد أن يكون الغزو قد تم ..

• فى الظلام .. كأية جريمة .

• ليكن ، لكنه تم .

• الجريمة لا تكسب مشروعيتها ، بوقوعها !!

• والتحرير لا يتم بالكلمات .

• .. بأضاءة النور يتم . ! بمحاربة الظلام يتم . !

• وماذا أعددتم .. ؟

• أعددنا أنفسنا ...

• لتحاربوا ..

• لنضىء ، فتزول الظلمة .

• وكيف تضيئون ؟

• بالعلم نضىء .. بأحترام النفس نضىء .. بأداء الواجب نضىء .

• ويرحل .. الغزو ؟

• إذا لم يجد لنفسه مصلحة .. يرحل ؛ حين يجد أن وجوده يكلفه أكثر مما قدر .. يرحل !

• هذه قضية خلافية على أى حال .

• إن القوة ليست فى السلاح أو الذخيرة .

- أين إذن تكون القوة ؟

- فى الأنسان . . فى النور . . فى إنتاج وافر . . فى خلق لا يتدنى . . فى كل فضيلة . فى التعفف عن منافقة الحاكم . . فى كل ذلك . . تكون القوة .

. . .

وبدأت الحياة تدب فى أطراف مدينتنا .

السهل الواقع فى حضن جبل ، أصبح سهلين . ثم ضم إليه القمة ، ليتحول الجبل الوعر إلى مأمن .

وأخضر الزرع وترعرع . وأصبح المحصول يكفى ويزيد .

وشهدت مدينتنا أبناءها القدماء ، حتى أصحاب الوجوه البيض والشعر الأصفر ، ممن كان الغازى قد أغوهم ، عادوا إلى حضن الأم ، ينشدون الدفء والمأمن .

واتسعت ساحة أصحاب مدينتنا ، مع كل عائد إلى أرضه ، من مهرب كان قد ذهب إليه .

وعلى العكس ، كان غزاة الأرض قد انحسروا ثم تجمعوا فى واد ضيق ، يرتبون لمكان آخر يأويهم .

وبدأت ليالى مدينتنا تشهد أفراحا ، وتستمع إلى الأناشيد المرحة ، وإلى أغانى البهجة ، فى النور الساطع .

ولم يحفل أصحاب مدينتنا بالغازى ، فقد غطوا الأرض بمياه ترويها ، فيها رائحة عرق .

وانتشرت المصابيح في كل مكان ، يشع منها النور الوهاج ، وتتراقص في النور الساطع فراشات مختلفة الألوان والأحجام .

وفي الليالي القمرية ، كان أهل مدينتنا يتجمعون ليتمتعوا بضوء القمر الخافت ، ويتركون لخيالهم الخصب عنانه ، فيحلق بهم، في سماء فسيحة رحبة، زينتها النجوم .

ونسي معين نفسه ، وهو ينشر النور في كل مكان . .

ونسي مهند أنه على وعد مع نفسه ، ومع طاهرة .

وكان مهند ، قد ترك يمناه ، لجراح من أهله ، فأعادها كما كانت ، صالحة لأداء الأعمال ، حتى الشاقة . . صالحة لاستعمال السلاح ، وهو ما كانت تخشاه سلطات الغزو . كان مهند قد آمن بأن الأفضل أن يصبح واحدا من المصابيح . فالسلاح يقتل ، أما المصابيح فتضيء ، ويشع على الأجيال بنور لا يخفت .

وفي أول لقاء لمهند مع طاهرة ، بعد أن نجحت العملية مد إليها يمناه ليسألها عما تلاحظه فيها .

وفوجيء مهند بطاهرة تقبل كفه وأصابعه .

وشعر مهند بأنه لم يعد قادرا على أن ينتظر .

وعندما فاتح « معين » في أمره ، قال معين كمن تذكر شيئا نسيه : ذكرتني بما كنت نسيته .

قال مهند وهو يضحك : أفكنت قد نسيت راشيل ؟

قال معين : أنشغلت عنها ، بما أنشغلت أنت به عن طاهرة .

وكان الشيخ مرزوق واقفا يسمع هذا الحوار ، فصاح يقول :
وأنا أيضا يا أولاد .

وأنصت كل يسمع للشيخ .

قال الشيخ : أنى أطلب يد مريم منك يا معين .

ولم يستطع معين أن يتكلم . أرتج عليه وتلعثم ، فنظر إلى مهند يطلب أن يعاونه فى موقف ، لم يخطر له أبدا على بال .

لكن مريم كانت منهم غير بعيد ، فلما سمعت ما قاله الشيخ غلبها حياء الأنثى ، فدفنت نظراتها فى قدميها !

ولم يتكلم أحد ، لأن أحدا لم يعرف ماذا يقول .

قال الشيخ : دعونا نسألها .. هذا شرع الله .

وأنتظر الجمع ماذا ستقول مريم .

قال الشيخ : أتزوجيننى يا مريم ؟

قالت مريم : أنا .. أنا أخذت نصيبى .. وهو يكفينى ويزيد .

قال الشيخ : أنك في عز شبابك يا مريم .

قالت مريم : لاتذكرنى بشبابى يا شيخ مرزوق .

قال الشيخ : لن تندمى يا مريم .. فأنا على علم بكل ظروفك .

وأنا أحب « معين » وأحب طاهرة .. وسامحيني إذا تجرأت وقلت .
وأحبك أيضا يا مريم .

قالت مريم مضطربة : أنا لا علم لي بهذا الحب يا شيخ مرزوق .

قال الشيخ : الحب لا يرتبط بقيود يا مريم . على كل ، فأنا أقدر حرج الموقف . معنا معين وطاهرة فهل يعترضان ؟

هذا موضوع يهم أمنا مريم . ومعين إنسان عاقل وأفقه واسع ولا يمكن أن يحول بين أمه وسعادتها هكذا قال مهند .

وبدا أن أحدا لا يعارض في أن يتزوج الشيخ مرزوق بمريم .

ومرت فترة صمت قال الشيخ بعدها يخاطب مريم : أعندك سبب يامريم لك عن الرفض ؟ قولي لي يا مريم .

قالت مريم : أنا مضطربة يا شيخ مرزوق .

قال الشيخ : مم .. ؟

قالت مريم : وتسامحني ؟

قال الشيخ : قولي بصراحة فهذا أفضل .

قالت مريم : أنت تقول أنك تحبني يا شيخ مرزوق .

قال الشيخ : نعم .. وهذا شيء يشرفني .

قالت مريم : كيف تحب واحدة لم ترها ؟

قال الشيخ : رآها قلبي . وهي رؤية أصدق من رؤية عيني .

قالت مريم : هذا عجيب . قد أكون دميمة ياشيخ مرزوق .

قال الشيخ : لايمكن . ان جمال الروح يضفى على الوجه جمالا . . .
ماذا أقول ؟ وكيف أصف جمالك . . كنت أقول جمالا . .
ليكن جمالا . . أجمل ! ألا تزالين تترددين ؟

وبدت مريم فى نعومة من أستعادت شبابها كله ، ولم ترد .

قال الشيخ : ولم . . لم التردد يا مريم ؟

قالت مريم : إنى لا أعرف الطريق إلى قلب .

وسكتت مريم لحظة ، ثم قالت فى همس : سامحنى . . . كنت أقول إنى لا أعرف الطريق إلى قلب . . الأعمى !

قال الشيخ : وتعرفين الطريق إلى قلب المبصر ؟

قالت مريم : المبصر يرانى وأراه .

قال الشيخ : والأعمى يراك أوضح مما يراك المبصر .

قالت مريم : لكنه أعمى . سامحنى يا شيخ مرزوق .

قال الشيخ : قد لا يرى المبصر ما يراه الأعمى .

قالت مريم : فقط أريد أن أستوثق من حبك .

قال الشيخ : أبعد كل ما تعرفينه من تضحياتى ، تريدين الأثبات ؟

قالت مريم : أفكان هذا كله من أجلى ؟

قال الشيخ : من أجلك ومن أجل مدينتنا ، ومن أجل الحرية والعدل ، والمستقبل .

قالت مريم : ولم تقل لى ياشيخ مرزوق .. ؟

قال الشيخ : أعتاب هذا ؟ نتعاتب فيما بعد . والآن قبلت ؟

ولم ترد . ! مريم لم ترد ! لكن الأولاد ردوا ، حين وثبوا يقبلون الأم، وهم يمسحون دموعهم من فرط سعادتهم .

. . .

فجأة قال الشيخ مرزوق وهو يمسك بيد مريم فى رقة وحنان . ورفع بيده الأخرى المنظار الأسود :

ها أنا قد أبصرت يا مريم .

وأرتبكت مريم وتلعثمت وأهتزت من المفاجأة ثم قالت :

ولماذا أخفيت عنى الحقيقة ، طيلة هذه السنوات ؟ لماذا ؟

قال الشيخ : واجب أديته نحو أهلى ونحو مدينتنا ونحوك يا مريم .

. . .

وفى غمرة السعادة والهناء ، أخـذ الجميع يغنون ويرقصون ، فكل الفتيـات صرن كمريم .. عرائس ! وكل الفتيان صاروا كالشيخ مرزوق ... مصابيح .. !

كلهم صاروا مصابيـح ... تضىء الدنيا .

... مصابيح تؤكد أمن الآمن .

... مصابيح تفضح محاولات الغدر .

... مصابيح تكشف حتى ما في الصدور من حقد وضغينة .

وستبقى مدينتنا حرة ، بعيدة عن مطمع غاز متجبر ، طالما أضاءتها المصابيح . . المصابيح ... المصابيح !

. . .

تمت بحمد الله
أمبابة ١٩٨٢

عبد المنعم الصاوى

الناشر **دار الحياة**

٥٩ شارع ٢٦ يوليو تليفون ٧٧٢٨٢١ القاهرة

رئيس مجلس الإدارة [illegible]

مطابع الناشر العربي

٨ ش الصحافة ـ بولاق ـ القاهرة

ت ٧٧٩٢٤٨

رقم الإيداع بدار الكتب

٥٦٥٧ / ٨٤